نص نقـل

أسـامة علي الصــادق

نص نقـــــل

روايـــــة

الطبعة الأولي: مـــايو ٢٠٠٩

الطبعة الثانية: ينـــاير ٢٠١٠

تصميم الغـــــلاف

المهندس / طـــارق الصـــــادق

النشر والتوزيع / أبو طـــــارق

ت : ٢٦٠٧٤٥٢٥

موبايل : ٠١٢٧٩٧٠٠٣٢

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

نُص نقـل

روايــة

أسامه علي الصـادق

الطبعة الثانية

٢٠٠٩

اللقـــــاء الأول

عـمر حمدي

أنـا مـن أبنـاء مدينـة القنطـرة غـرب بمحافظـة الإسـماعيلية , نقلـت أنـا وأسرتي مع والدي للعمل بمدينـة الزقـازيق خـلال فترة التهجير التـى شملت أبناء مدن القناة الثلاث .. كنت أيامها طفلاً فى بداية المرحلة الإعدادية بينما كان والدي موظفاً بسيطاً رقيق الحال بأرشيف نيابة الزقـازيق .. أنـا الابن الأخير حيث سبقني أربع شقيقات لم يحصلن إلا على التعليم المتوسط بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة والقاسية التى كانت تمر بها أسرتنا وخاصة خلال فترة التهجير وما كنا نقاسيه من شظف العيش والسكنى الغير آدمية وشعورنا بالغربة بداخل وطننا حيث كنا نمثل عبئاً على المحيطين بنا رغم أنهم لم يتذمروا أو يئنوا من وجودنا أو وجود بعض العائلات المهجرة الأخرى , فقد كانوا يتمتعون بالشهامة المصرية رغم فقرهم وعوزهم.

كنت أشاهد أمي وهى تعد لنا الطعام والشراب بأقل التكاليف حتى لا تحمل والدي الموظف البسيط اى مبالغ مالية إضافية لا يستطيع تحملها , فعمله فى النيابة لا يعود عليه سوى براتبه فقط وكان الله قد أمده من عنده بعدة ميزات كنت أتمنى أن تنتقل إلى , فقد تميز بـ" الجلد والإخلاص فى العمل و نظافة اللسان مع الجمهور و نظافة اليد مع المتعاملين معه سواء من المحامين أو أصحاب القضايا"

التحقت فى فترة الدراسة الثانوية بمدرسة الزقازيق الثانوية للبنين وهى مدرسة كبيرة الحجم أنشئت عام ١٩٠٨ وبها الكثير من الإنشاءات التى لا تتوافر إلا فى مثل تلك المدارس العريقة التى أنشئت وقتها لتصبح منارة للعلم فى ربوع مصر .. حصلت على الثانوية العامة بمجموع يؤهلني للالتحاق بكلية الهندسة , هكذا وجد والدي نفسه مضطراً لاستكمال تعليمي عوضا عن شقيقاتي الأكبر منى وقد تم زواجهن من موظفين رقيقي الحال.

أصبحت طالباً بكلية الهندسة جامعة القاهرة وألحقت بالمدينة الجامعية كأحد أبناء الأقاليم , عشت حياتي داخل المدينة بالطول والعرض , فالطول هنا بمعني السير فى إتجاهات مستقيمة للتفوق الدراسي حيث كنت راغبا في الحصول على المجانية حتى أقلل العبء المادي علي والدي وبالعرض أيضا وذلك بالاحتباس الإجباري والإختيارى وعدم ترك المدينة للتنزه مثل باقي الزملاء فهذا يحتاج إلى مصاريف وأنا لا أمتلك مثل هذا الترف.

ساعدني أحد المعيدين حينما رثى لحالتي المادية ورقة الحال التى شاهد آثارها على ملابسي وذلك بأن وفر لي وظيفة نصف يوميه آخر اليوم بنادي الزمالك الرياضي , كانت الوظيفة أن أعمل مع عمال الحديقة فأقوم على رعاية الأشجار ونباتات الزينة , كنت أعود إلي المدينة الجامعية مرهقا من كثرة العمل بينما كان بعض زملاء المدينة يعتقدون بأنني أتنزه وألهو مثل البعض من أبناء الريف الذين شعروا بالحرية من مراقبة الأهل مع حرمانهم من متع القاهرة فأفسدوا أوقاتهم وأخلاقهم.

شاهدني أحد أعضاء مجلس إدارة النادي فى أحد الأيام وانا أعمل فأقبل على متسائلاً:

- أنت بتشتغل هنا؟ أجبته بالإيجاب. نظر إلى مليا مندهشاً وموضحاً.

- أنت تتبع الداخلية. يعنى مباحث أو أمن؟

نفيت هذا ولكنه استطرد فى حديثه بأني مش شكل فلاح أو جناييني. اقتربت منه وأخبرته بحالي وأنا أدرس وأعمل كي أساعد نفسي ماديا , إبتسم الرجل وربت على كتفي ثم أخبرني بأنه سينقلني للعمل بالبوفيه حيث العمل به أقل جهداً وأكثر ربحا. شكرته على مروءته وفى الأسبوع التالي انتقلت للعمل فى البوفيه وكان فصل الشتاء قد أقبل فأصبح ري المزروعات يؤدى إلى بلل ملابسي.

شعرت براحة بعد مُضى شهر على عملي الجديد وفى أحد الأيام وأنا أقوم على خدمة أعضاء النادي وأحمل ما يرغبه الأعضاء من مشروبات اتجهت الى رقم "المائدة" التى أخبرني بها رئيسي فإذ بى أفاجأ بأن روادها مجموعة من الزملاء والزميلات بالكلية .. تعثرت وكادت الصينية التى أحملها أن تسقط من بين يدى لولا قيام أحدهم بحملها عنى قائلاً:

- عنك يا باش مهندس!! شعرت أن الأرض تميد بى رغم أنهم جميعا أثنوا على ما أقوم به من عمل وما أمثله من قدوة لطليعة الشباب المكافح والمساير للتقدم والحضارة الأوربية.

عملت تلك الليلة بدون فكر أو عقل وقد أضطرب حالي مما دفع برئيسي فى العمل إلى توبيخي بعد أن نهرني أكثر من مرة بل وصرخ فى أمام

أعضاء النادي ومنهم زملائي الذي قام أحدهم مستفسراً منه بضيق ومتسائلا:

- ليه بتزعق له؟ أجابه بضيق.

- لأنه غبى.

كاد زملائي أن يتعاركوا معه وقد صاح به أحدهم قائلاً:

- اللى مش عاجبك ده طالب بكلية الهندسة يا مغفل .. فاهم .. حيبقى مهندس وهو من أشطر الطلاب وقد هدده بعضهم بنقل ما حدث إلى الإدارة مما دفعه إلى الاعتذار.

شكرتهم وانزويت بأحد الأجناب أشاهدهم وهم يغادرون القاعة وقد ارتدوا أحسن الثياب والبدل والفساتين بينما كنت ارتدى ملابس البوفيه وبقدمي حذاء كاوتش من شركة "باتا" .. كادت الدموع تفر من عيني وأنا أرثى لحالي وأتساءل:

ماذا جنت أسرتي لنصبح هكذا؟ أبى وأمي يعيشان على الكفاف وشقيقاتي هن أيضا يعشن حياة على الهامش وأنا أذاكر وأعمل ليلاً وبعد أن أنتهى من عملي سأقوم على نظافة دورات المياه بينما أشاهد حال زملائي من حُسن الهندام وسيغادرون المكان متجهين إلى مطعم ومنه الى إحدى دور المسرح لمشاهدة مسرحية مشهورة وثمن تذكرة الدخول يكاد يكون مساويا لما أحصل عليه طوال الشهر من عملي هذا.

كدت أن أرتكب حماقة بتركي العمل ولكنى صبرت وقد ساعدني على هذا موقف زملائي الذين شاهدوني فى النادي والذين لم يتحدثوا بما شاهدوه

إلي زملائهم بالكلية .. انتهى العام الدراسي الأول بنجاحي وحصولي على تقدير جيد مما أثلج صدري المحترق .. قررت ترك النادي حيث علمت أن الكثيرين من زملائي بالكلية أعضاء بالنادي وفترة الصيف هى فترة نشاطهم.

حدثت عم "مسعود" رئيس العمال عن رغبتي فى العثور على عمل آخر وشرحت له ما دار بفكري. أيدنى الرجل بأن بعض شباب النادي مُنحل ولا يراعى شعور الآخرين ووعدني بالبحث لي عن عمل وسكن فترة الصيف. مضت أيام ثلاث وجاء ليخبرني بأنه عثر لي على عمل. أوضح لي بأن علي أن أتجول بعربة آيس كريم بين حواري منطقة أم المصريين. ترددت ولكنه شجعني بأنه عملٌ حر فكل ما أقوم به يخصني وأن الشركة المسئولة سوف تسلمني كل شيء وأقوم بالبيع وأعيد للشركة ما يخصهم وأحصل على الباقي.

وافقت على العمل حيث كنت أقوم به من العاشرة صباحا حتى الثامنة أو العاشرة مساء حتى انتهى من بيع العبوات التى تسلم لي .. كانت المشكلة التى ظهرت أمامي هى السير لمسافات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة واستخدام الزمارة للإعلان عن قدومى , ربنا سترها معي. كنت أحصل على مستحقاتي من قوم فقراء مثلي كانوا يشعرون بحالي.

أستمر العمل طوال فترة الصيف والذي كانت تخلله بعض الهبات من الطعام في مناسبات ظهور أو سبوع الأطفال بل فى بعض الحالات "رحمة

يوم الخميس من القرص" التى توزع صدقة على أرواح الموتى , ترافق كل هذا مع سكنى المتواضع بساقية مكي.

*****

كنت قد استأجرت حجرة بساقية مكي في أطراف العمران ، الحجرة بأعلى منزل مكونا من خمس طوابق أي فوق السطوح ، بأعلى المنزل يوجد ثلاث حجرات ودورة مياه وكل حجرة تسكن بها أسرة وأنا أقيم بإحداها.

بعد مضي أسبوعين لاحظت أن الحجرة المجاورة لي تقيم بها أسرة مكونة من الأم وفتاتين ، الكبري يبلغ عمرها العشرين عاما والصغرى سبع عشر عاما ، الأم تخرج للعمل يوميا منذ الصباح ولا تعود إلا قبيل الغروب منهكة الصحة معتلة البدن ، الابنة الكبري تعمل في أحد مصانع الأدوية حيث تقوم بتغليف عبوات الدواء ، ألصغري وتدعي فاتن تقوم علي أعمال النظافة من غسيل ونشر الملابس وإعداد الطعام كما أنها تقوم بغسل ملابس بعض الأسر القريبة وإعادتها لهم نظير مبلغ من المال.

كل تلك المعلومات علمتها من فاتن أثناء لقائي بها علي سطح المنزل سواء أثناء توجهي لعملي أو بعد عودتي منه ، في إحدي المرات عرضت عليّ فاتن أن تقوم علي العناية بنظافة ملابسي ، قدمت شكري لها علي ذلك ؛ ابتسمت قائلة بأنها لن تحصل مني نظير هذا العمل علي أي أتعاب بالإضافة إلي ثمن صابون الغسيل التي سوف تتكفل به.

كان سبب رفضي أن ملابسي مهلهلة خاصة الداخلية منها وكنت أستتر بملابس الخروج وأعمل وأعود وبعد أن أنتهي من نظافتي الشخصية أقوم بغسل بعض تلك الهلاهيل ونشرها بداخل الحجرة.

لم أكن أعد طعاما بالحجرة حيث كل طعامي من خارج المنزل وكما هي العادة فقد أعانني علي التزود بطعامي بعض من تبرعات أولاد الحلال وبعض ممن يقدمون يد العون لي ، كنت أعود للحجرة كي أستلقي بها لأحصل علي قسط من الراحة أستعيد فيها نشاطي ليوم آخر من العمل المرهق خاصة أيام الدراسة حيث كنت أعمل بعض الوقت وأعود لأذاكر دروسي علي ضوء لمبة جاز كانت لدي.

في إحدي أيام الشتاء وبعد الغروب حيث كنت أستعد للمذاكرة المستمرة وكلية الهندسة التي لها من المواد العلمية الكثيرة التي تحتاج إلي التركيز والمثابرة وخاصة مادة الرياضيات المتشعبة والمتعددة ، سمعت طرقا علي باب حجرتي فنهضت وفتحت الباب لأن هذا حدث جديد علي ، الطارق الفتاة الصغيرة والتي تدعي فاتن ، رحبت بها متسائلا عما تريده ، لم تجبني وأسرعت بالدخول وغلق الباب خلفها ، نظرت إليّ نظرة غريبة أثرت علي مكنون نفسي وشعرت باضطراب لم أتعرض له من قبل.

جلست علي الكنبة البلدي التي هي فراشي وموضع جلوسي وطافت عيناها بأرجاء الحجرة ثم أشارت إلي بالجلوس بجوارها ، فعلت وجلست ولم يكن بديلا عن هذا سوي الجلوس أرضا فوق أرضية الحجرة الأسمنتية ، اقتربت مني باسمة نظرت في عيناي ، شعرت بوجل وخوف وكدت أنهض

تاركا الحجرة لكنها أمسكت بيدي بهدوء وأشارت لي بيدها تربت علي فرشة الكنبة بأن أجلس ، عدت وجلست وأنا مازلت مضطربا ولا أعلم ما وراء تلك الزيارة.

اقتربت مني وأصبح حديثها همسا مشفوعا بلفحة هواء من زفير ساخن:

ـ حمدي : ماما وأختي سعاد سافروا النهاردة للبلد في كفر الشيخ وح يقضوا اليوم بطوله ويرجعوا بعد بكره ، قلت آجي أونسك وأنت وحيد وأنا كمان وحيده ، إيه رأيك في الفكرة دية؟

لم أجبها وزينها الشيطان لي ، اقتربت منها ، فوضعت يدها خلف عنقي وضمتني إليها بعنف ، خالجني شعور طيب جميل وشعرت بأشياء لم أشعر بها من قبل ، تبعتها في كل حركة تقوم بها ، وضعت يدي خلف ظهرها ورقبتها وشعرت بأن لها جسد ناعم طري الملمس ، عادت للخلف برأسها قليلا ونظرت إلي بعيونها الجميلة ، شعرت برجفة وقشعريرة ، ظللنا علي هذا الوضع بضع دقائق وكل منا يبتلع لعاب فمه وأسمع أصوات زفير كل منا وهواء ساخن يخرج من كل فم وأنف ويرتد إلي الآخر.

عادت بجسدها للخلف ووضعت رأسها علي الحائط وفردت ساقيها قليلا بحيث وضعتهما فوق فخذي وابتسمت وهي تحرك رأسها وقد تبين لي صدرها الصغير نسبيا حيث قالت:

ـ حمدي .. أنت بتحبني؟

لم أعرف إجابة علي هذا السؤال ولم أعد نفسي مسبقا له ولم أكن أشعر بتلك المشاعر التي أشعر بها الآن ، أعادت سؤالها مع إضافة بأن حركت إحدي

ساقيها تداعب بها بعض أعضاء من جسدي ، شعرت بان العرق الغزير يتسبب مني وأنا أشاهدها علي هذا الوضع ، أبدلت من رقدتها ونامت علي صدرها مع ثني ركبتيها وهي مازالت مركزة نظرها عليّ.

بعد قليل نهضت واقفة والتصقت بى ووضعت يدها خلف رقبتي وضمتني إلي صدرها فالتصق وجهي بصدرها حيث مازلت جالسا ، لم أعد أتحدث أو أتصرف فهي تقوم بكل ما تريد به وأنا أصبحت كلعبة بيدها صامته هامدة لا أبدي أي اعتراض أو مقاومة وتجاوبت معها دون أن أكون البادئ.

ـ حمدي أنا ممكن أفضل معاك طول الليل ولحد الصبح لكن علي شرط توعدني بأنك تتجوزني ، فاهم وإلا؟

لم أفهم الجملة ولكن شعرت بأنه نوع من التهديد وزواج كيف وأنا مازلت طالبا لا أستطيع أن أقوم بالإنفاق علي شخصي فكيف أتزوج ومن من وأنا لا أعرفها ولم أكن لها حبا أو كرها بل هي مثل أي فتاة أقابلها أثناء تسويق بضاعتي بالشارع والبعض منهن يتدللن بحديث ناعم أو بابتسامة لا معني لها ولا تعدوا أن تكون إخدي تصرفات بنات حواء.

تحدثت معها بقليل من الكلمات ، فاتن بعد إذنك أروح أجيب كتاب من واحد صاحبي وأرجع علي طول وبكره الجمعة وعايز أذاكر فيه ، نظرت إليّ نظرة ذات مغزي ولكني لم أتفهم معناها بوضوح ولكنها نظرة تدفع إلي الغواية والتعلق ببنات حواء ، جذبتني من جلبابي إليها قليلا وطبعت قبلة خفيفة علي خدي وقالت:

- روح وتعالي علي طول ولما ترجع خبط عليّ وأنا مجهزه لك أكله حلوه .. حمدي الليلة دية ح نضحك وننبسط فيها ، غادرت الحجرة وارتديت بالطو قديم وأغلقت الباب بالقفل وهرولت السلم وكنت أقفز عدة درجات في كل مرة.

الحمد لله ، وقفت بالشارع والهواء البارد يلفح وجهي الساخن المحتقن وقد بدي عليّ بأنني عملت عمله مهببه ، أسرعت الخطي إلي زميلي في بيع الآيس كريم "جاد" طرقت الباب عدة طرقات علي عجل . سمعته بالداخل يلعن أبو الجاي في تلك الساعة والليلة التي كانت ح تبقي أنس وليلة الجمعة والنيلة اللي جاي ح يعكنن مزاجي ، فتح الباب ونظر إلي بضيق وتساءل بطريقة أولاد البلد:

- فيه إيه ياد؟ إيه نسيت زمارتك معايا وإلا إيه؟ ما ترد ، انخرست ، طيب خش ياد " أطلق صوته الخشن منلديا" زوجته .. بت يا عديله .. أنت يا بت .. بعد قليل أقبلت زوجته تتهادي بقميص نوم أحمر شفاف وقد وضعت علي شفايفها طبقة سميكة من اللون الأحمر الزاعق لزوم الجمال.

- إيه يا نيله ؟ بتزعق كده ليه؟ .. الله !! مين سي حمدي خير يا خويا .. قاطعها جاد قائلا بصوت أكثر صرامة:

- "هدي المولد" النيلة ده عكنن مزاجي .. خليها يوم تاني وإلا بلاش ونصوم عن الحريم .. مالك ياد؟ افرجها شويه.

جلست زوجته مواجهة لي وقد ظهر ساقيها أعلا الركبة بمسافة لا تقل عن طول القلم الرصاص ودارت عيناي لهذا المنظر وأنا أسترجع منظر

فاتن ، الاثنتان متشابهتان متقاربتان مع اختلاف في الحجم حيث عديله أكثر بدانة .. دفعني جاد في كتفي ومازال يدخن سيجارته .. إيه يالـه؟ الولية عجباك!! شفت أنت عملت فيا إيه كان زماني طاير ومشعشع.

نهضت لأغادر المنزل ولكنه أمسك بتلابيب جلبابي وخشيت ان يتمزق فجلست بينما قررت زوجته بأن تُعد لنا "لقمة نتقوت بيها"، ضحكت بصوت عال ضحكة مائعة وأكملت جملتها "علشان المعلم جاد يبقي بصحة ومش يفرفر من أول مشوار" صفق جابر سعيدا وأشار إليها بأن تقوم بعمل اللازم ، اقترب مني يحدثني:

- فيه إيه يا صحبي .. قول السر في بير

أخبرته بما حدث من فاتن .. كان جاد يستمع لحديثي معلقا ببعض الكلمات البذيئة والجنسية الرخيصة علي تلك الفتاة وعلي أسرتها .. طيب من خاطري وطلب مني عدم العودة إلي الحجرة خشية أن أنزلق معها في علاقة جنسية وتنتشر الفضيحة علي الملأ وأضطر إلي الزواج بها.

أقبلت زوجته فشاهدت زوجها عابس الوجه ، تساءلت:

- فيه إيه يا خويا

- لا مؤاخذه يا صاحبي ح أقول للولية تقطمنا برضه .. إحنا رجاله ولعب الحريم ده ملوش آخر وعلي رأي المثل " لا يفل الحريم إلا الحريم " مش برضه صح؟

أخبر جاد زوجته بما حادثته به منذ قليل ، من أول كلمة سمعتها ضربت السيدة بيدها بقوة علي صدرها فشاهدت كورتين من اللحم تهتزان بشده ذات اليمين وذات اليسار معلقة:

- ينهار مش فايت .. حتروح في داهية .. أقطع دراعي من لغلوغه أن البت دي حصل لها "....." خليك هنا دا أنت حالتك غلب خالص .. لا حول الله .. توقفت قليلا ثم بادرتني بسؤال:

- وإلا نفسك فيها .. ماهو الرجاله عينهم زايغه ومش بيشبعوا.

أشار إليها زوجها بضيق بأنه لسه ما دخلش دنيا وما يعرفش حاجه عن تلك الأمور وأنه مازال "تلموز"!!

قضيت ليلتي بالحجرة الأخري والتي أعدها "جابر" جراج لعربة الأيس كريم وللأحذية القديمة وبقايا المنزل التالفة.

في الصباح رافقني كلٌ من جاد وعديله زوجته إلي حجرتي ومجرد وصولنا إلي السطح شاهدنا فاتن تجلس وهي في حالة من الضيق ، رغبت في الحديث ولكنها خشيت من مرافقي ، ودعني الرجل وزوجته وقبل أن يغادر المكان تحدث بصوت واضح ومسموع:

- ولا يهمك يا صاحبي ، أيتها نفر يعكنن مزاجك مصيبته سوده ومش ح أخليه يفضّل في الحتة ولا يكمل يوم علي بعضه ، أيوه ... سلام

غادر المكان ودلفت إلي حجرتي وأنا أشعر بأن اليوم لن يمر مرور الكرام ، عدة دقائق وسمعت طرقا علي الباب ، نهضت لأفتح الباب وأري

من الطارق وأنا أطلب من الله العون في محنتي هذه ، فأنا غريب عن الحي وليس لي عزوة أحتمي بها وليس معي مال وأخشي غضبة الله عليّ.

- ازيك يا سي حمدي .. كده عملتها وتأخرت؟

- أبدا يا فاتن .. استنيت صاحبي وجه متأخر والبرد كان شديد بعدين رحت عند صاحبي جابر وبيت عنده وجه معايا يوصلني لما شعر إني بعافية شويه.

نظرت إليّ نظرة لا أعلم مغزاها ومازالت تمضغ اللبانة التي في فمها واقتربت مني حتي كادت شفتاها تلامس وجهي وسمعت طرقعة حيث أخرجت اللبانة من فمها علي هيئة كوره صغيرة انفجرت وعادت إلي الخلف ضاحكة وهي تمسك أطراف شعرها قائلة:

- بكره تشوف يا حمدي ضرضرمه إن ما وريتك!!

مازلت أواصل حياتي لكن ما بثته فاتن في أذني سواء إغراء أو تهديد مازال عالقا بذهني يهاجمني من حين لآخر ، عدت في أحد الأيام مرهقا كعادتي ومجرد أن بلغت سطح المنزل حتي شاهدت ثلاثتهم "الأم وفاتن وشقيقتها سعاد" وقد وقفن أمام باب حجرتي راغبات بمنعي من الدخول ، لم أستطع التصرف وظللت واقفا أحمل بعض كتبي والأم تنظر إليّ نظرات نارية وتهز وسطها بحركة رأسية انخفاضا وارتفاعا بثني ركبتها قليلا ثم تحدثت بصوت أجش:

- إيه يا له اللي كنت عايز تعمله في البت فاتن ، ساكت ليه؟ ما ترد بروح أمك؟ من أولها تلم الهلاهيل بتاعتك وتشوف لك حته تانيه يا لله اين الكلب.

غادرن المكان وأنا مازلت واقفا متحيرا ، إلي أي مكان أتجه؟ يارب ساعدني أنا صبري ح ينفذ ، أعمل إيه؟ اهديني ، هرولت عائدا إلي بيت صديقي جابر والذي قابلني عائدا بعربة الأيس كريم ومجرد أن شاهدني حتي تساءل بصوت مرتفع .. إيه يا حمدي النسوان ولاد ..... عملوا فيك إيه؟

رويت له كل ما حدث . نظر إلي الأرض مليا ثم أمسك بيدي ودخل منزله واستقبلتنا عديله وقد شعرت بما أكابده حيث طيبت من خاطري ، طلب منها إعداد الطعام ، لم أكن راغبا فيه ، بعد جلسه قصيرة طلب من زوجته التوجه لأشقائها وجمع أكبر عدد من الرجال للتوجه لتلك النسوة وتلقينهن درسا لا ينسوه ، طلبت منه التمهل حتي يعود أخوتها من سرحتهم حيث يعملون في تجارة "الروبابكيا".

مضت ساعة من الزمن ونحن صامتين تحدثت عديله بعدها مبددة هذا السكون قائلة: أن أحسن حل نشوف مكان تاني لسي حمدي بعيد عن الغجر دوول ، نظر إليها زوجها ومازال ممسكا بالجوزة وأخرج دخانا كثيفا من فمه غطي به بعض أسنانه الصفراء المكسوره متسائلا:

- يعني إيه يا وليه ، فهميني أنا يا دوب راجع من الغلب وتعبان وأخويا ابن كاري مغلوب علي أمره ... يعمل ..... زي البت ما بتقول يا تبقي فضيحته بجلاجل.

- تعرف بيت عمتي روحيه؟

- أه عارفه .. ماله؟

ـ الاوضة اللي عندها وبتأجرها فضيت من كام يوم ، نسكن فيها سي حمدي ، قلت إيه؟

ـ الفكرة حلوه لكن عمتك مش بتبطل دوشة والنابت إللي بتعمله كل ليله عشان تبيعه ح يلخم صاحبي

ـ ولا يلخم ولا حاجه وآهي ست طيبه وبتدور علي لقمة عيشها ، ما أقوم أكلمها

مازال جابر مشغولا في الجوزه من إضافة بعض "قوالح" ممسكا بها بيده اليسري وباليد اليمني ممسكا بالماشة كأنه جراح يقوم بعمليه جراحيه ووجه مكفهر من عمله طوال النهار يرتدي كلسونا طويلا لا أعرف إن كان لونه أبيض أو أصفر وقد تقطعت بعض أجزاءه وساقه اليسري موازية للأرض واليمني عمودية وشعره أشعث وشاربه لم يهذب منذ فتره أما أظافر يده وقدميه فلم تعرف القص طوال حياته حتي انثنت من طولها وبأسفلها اللون الأسود.

ـ ما تاخد لك نفس ياد

ـ إيه يا جابر أنا مش بحب كده

ـ علي كيفك لا عاجبك الجوزه ولا البت ، يا له يانتن كنت خلصت مع البت ولا من شاف ولا من دري ، نهضت مغادرا المكان فأسرع خلفي ضاحكنا يبلغني أسفه وأنه كان يمازحني حتي يخرجني من ضيقي وحزني.

بعد قليل حضرت عديله وعلي وجهها الأبيض الطري ابتسامة بريئة وتخبرنا بأن عمتها وافقت علي أن أعيش بالحجرة بنفس إيجار الحجرة

السابقة ، شعرت بان الله ساعدني ووقف بجواري وسخر صديقي وزوجته لمساعدتي في محنتي تلك.

تحرك ثلاثتنا وتوجهنا إلي الحجرة وجمعنا الأثاث البالي مغادرين المكان فأقبلت الأم وابنتيها وعندما علمن بأنني مغادرا المكان حتي شعروا بالراحة بينما أزرفت فاتن بعض دموع الحزن وأقفلت عائدة مهرولة إلي حجرتها فنظر كلٌ من أمها وشقيقتها ناحيتها وهن في دهشة وخرجت من أمها بعض كلمات " دا البت باين عليها واقعه في حب المدهول علي عينه.. جتك نيله لسه عيله"

هكذا تركت هذا السكن واتجهت للسكني بحجرة بمنزل متهالك بالدور الأرضي الرطب عديم التهوية والصالة المتربة التي أصبحت طينية مما تقوم به عمة عديلة من إنبات حبيبات الفول التي تخرج به كل صباح إلي السوق القريب تبيع الناس بضاعتها.

كانت عمة عديله سيده طيبه القلب وأكبر من أمي عمرا وقد تزوج جميع أبنائها وبناتها وأصبحت وحيده وليس لها معاش تقتات منه فقامت بتلك التجارة البسيطة ، لم تضايقني أو تعمل علي عدم راحتي حيث تدخل حجرتها بعد صلاة العشاء وتنهض تؤدي صلاة الفجر وتحمل بضاعتها للسوق.

كل عدة أيام تنفحني بعضا من حبيبات النابت والذي لم يتم بيعه لسوء الإنبات ، كنت أتناوله كما يتناول الناس السوداني واللب.

ظللت علي حالي هذا طوال فترة دراستي وقد حاولت فاتن علي فترات لقائي حين تشاهدني في الشارع أن تعيد وصلة الحب محاولة إشعاري بأنها تحبني وأنها أخطأت في حقي بالإضافة إلي كل من أمها وشقيقتها فكنت أخبرها بأنها مثل شقيقتي الصغري وهذا الحديث لم يجد أذنا صاغية ومازالت تحاول استمالة عواطفي ومشاعري تجاهها.

مازال هذا الصديق "جاد" ابن المهنة يحنو عليّ هو وزوجته عديله طوال السنوات المتبقية وكان يجمعنا الطعام خلال شهر رمضان المبارك أثناء الدراسة ولم أكن أتوجه إلي أسرتي نظرا لارتفاع ثمن تذكرة السفر ، شعرت بأن الله َمن علي بنعمة الهدوء في تلك الحجرة رغم أنها رديئة ولكنها لا تفترق عن حجرتي التي أنام بها في المنزل التي استأجرته أسرتي أثناء الهجرة بالزقازيق.

كان هذا هو حالي أثناء الدراسة الجامعية وقد كلل الله عملي وكفاحي بالنجاح والتخرج بتقدير "جيد" , أسرعت بالتقدم بطلب لمكتب القوى العاملة والذى قام بتعييني بوظيفة مهندس ميكانيكا مبتدأ بأحد مصانع الأسمنت بمنطقة حلوان .. كانت سعادتي كبيرة بهذا النصر وتسلمي العمل واستخراج "كرنيه نقابة المهندسين" ,ُكنت أشعر بسعادة عندما اقرأ في إحدي الصحف مع زملائي بالعمل عن مهندس تقلد منصبه كوزير أو محافظ وكانت الأمنيات والأحلام تطير بى , فقدُأصبح أحد هؤلاء فى يوم من الأيام ' سوف أصبح أحد هؤلاء .. كنت أكرر تلك الكلمة من حين لآخر .. ُكنت أحيا على تلك الآمال والطموحات بل بعدُمضى عام على تسلمي العمل أثنى

رئيس الشركة على جهدي وصافحني أمام العمال وحدثني معلقاً بأنني في يوم من الأيام سوف أتقلد موقعه لما أمتاز به من حُسن العمل والخلق.

مضت أربعة أعوام على تسلمي العمل ثم توتر الحال بوفاة الرئيس السادات ولكننا شعرنا جميعا كعاملين بالمصنع بقرب وصول خطر مستفحل بالتفكير في التخلص من القطاع العام ببيعه لمن يملكون المال والسلطة .. تبارى البعض في مدح تلك السياسة وأننا مقبلون على العمل في ظل شركات أجنبية وأن الخواجات لديهم ذمة وسوف يغدقون علينا المال وسوف تصبح حياتنا ميسرة رطبة.

خلال تلك الأعوام الأربعة التي عملت بها سكنت بحجرة في منطقة عين السلام القريبة من حلوان وهي منطقة شعبية عشوائية وغالبية القاطنين بها يعملون في مصانع حلوان التي انتشرت خلال العصر الناصري. السكن عبارة عن حجرة في شقة مشتركة مع بعض الزملاء العاملين في قطاعات أخرى .. استطعت تدبير بعض المبالغ النقدية من عملي بعد الإنفاق على نفسي بينما رفضت أسرتي أن أقدم لهم يد المساعدة مكتفين بما قسمه الله لهم من عمل أبي.

في إحدي الأجازات التي كنت أقضيها مع أسرتي عرجت على والدي في عمله , نهض مرحباً بي هو وبعض زملائه الطيبين السعداء بأن أبن أحد زملائهم أصبح مهندساً. أثناء جلوسي بجوار مكتب والدي المتواضع والمتخم بالملفات والأوراق حضر رجل يرتدى الملابس البلدية غالية الثمن وبرفقته فتاة رائعة الجمال .. صافح الرجل والدي وأشار أبي إليه يخبره بأن

هذا الشاب هو أبنه المهندس "عمر" والذى يعمل مهندسا بحلوان .. نهضت مصافحا الرجل ومرحبا به بينما نظر أبى الى الفتاة التى برفقة هذا الرجل مبتسما قائلاً:

- أهلاً يا أستاذة هالة.

بابتسامة بسيطة وهزة رأس أجابت على تحية والدي والذى عرفنى بها.

- الأستاذة هالة بنت الحاج عبدالعال صاحب أكبر حلقة سمك بالشرقية.

صافحت الرجل وقدمت تحيتي للفتاة من على بُعد واستأذنت الجميع مغادراً مكتب النيابة إلى الشارع فقابلتني نسمة هواء رطبة أنعشتني أفقت علي أثرها مما ألم بى من رقة وعذوبة تلك الفتاة فقد مَنَ الله عليها بالرقة والجمال , جسد ممشوق وقوام معتدل خمرية اللون عيون سوداء لامعة وشعر طويل ينسدل على كتفيها حتي وصل الى بداية الظهر أسفل رقبتها كما انها تتحلى ببعض الأساور الذهبية الرقيقة المنظر وسلسلة عنق بنهايتها فص من الياقوت الأحمر. أما والدها فكان غليظ الصوت عنيف القول.

استمر طيف الفتاة يلاحقني من حين لآخر وكنت أتساءل: لماذا يلاحقني طيفها رغم تعدد لقائي بالعشرات من الزميلات بالدراسة أو حتى الفتيات المتواجدات سواء بالحي الذي أسكن به أو بإدارة المصنع. لم أجد إجابة شافية إلا بعد عدة أعوام وهى كلمة واحدة "النصيب" هذا الشيء الغامض والذى أطلقنا عليه هذا الاسم الغامض أيضا فلا تستطيع أن تفسره وتستنبط منه اى معني أو مدلول أو شكل فقد أصبح مثل الكهرباء التى تسير بداخل سلك لا تشعر به ولكنك تعلم أن بداخل هذا السلك وذاك الكابل شيء يسمى

كهربـاء وقـد أصـبح الاثنـان متـرادفين "النـصيب" مازلـت أردد الكلمـة "النصيب".

بعد عدة أشهر من هذا اللقاء تقابلت مع صديقي ممدوح وانطلقنا نتجول ونتسكع بداخل مدينة الزقازيق .. توقف ممدوح عن السير مخاطباً.

- كنت ح أنسى , لازم أروح الكلية علشان أشوف نتيجة أختي. يا لله سوا وإلا وراك مشوار؟

- أنا فاضي , تعالى نروح نشوف النتيجة وربنا ينجحها وتعزمني على حاجه ساقعة. ضحك ممدوح مؤيدا حديثي.

بكلية الحقوق جامعة الزقازيق تزاحم الطلبة والطالبات لمحاولة التعرف على نتيجة كل واحد منهم خاصة أنها نتيجة الليسانس اى شهادة وانتهاء الدراسة الجامعية .. اخترق "ممدوح" سدود الطلبة ليصل إلى اللوحة وتركني واقفاً في انتظاره لما جاء من أجله.

أشاهدها. هى أو ليست هى؟ أنها هالة. هالة ابنة تاجر الأسماك الحاج عبدالعال , حاولت الفتاة اختراق الحائط البشرى دون جدوى خاصة أنها ترتدي ملابس أنيقة وصندل بأربطة رقيقة وإذا خاطرت بالدخول خلال الطلبة فسوف يدوس قدميها العديد من هؤلاء الشباب المتصارع على معرفة النتيجة , وقفت الفتاة حائرة فأقبلت عليها "متشجعاً بعكس تعاملي مع النساء وعلى غير عادتي , ابتسمت واقتربت منها.

- أهلا آنسه هاله. نظرت إلى وأجابتني بهزة رأس شعرت بأنها لم تتذكرني. سألتها عما تحتاجه , أجابتني بأنها تريد معرفة النتيجة والتقديرات.

حصلت على اسمها الثلاثي واخترقت صفوف الطلبة فتقابلت مع صديقي "ممدوح" والفرحة بادية على وجهه:

ـ نجحت يا واد يا "عمر". تركته مندفعا للداخل بينما صديقي يعيد على الخبر مرة ثانية مندهشا لماذا أتجشم عناء الزحام؟

ـ مش متأكد أنها نجحت؟ بأقولك "غادة" نجحت. يحدث نفسه (مصنع الأسمنت أثر على رأسك وأصبحت رأس مسلحة)!!

مضت عدة دقائق وهالة مازالت تنتظر ظهوري وكنت أشعر أنها مازالت لم تتعرف عليّ ولكن التوتر لازمها حتى شاهدتني أطل برأسي من بين أجساد الشباب والابتسامة تعلو شفتاي ففرح قلبها قبل فرح عقلها مستنتجة النتيجة وأقبلت عليها حاملاً ورقة صغيره وباديا على الإرهاق قائلاً:

ـ ألف مبروك أنسه هاله. ابتسمت برقة.

ـ "مرسى" وعيناها تتفحص الدرجات والتقديرات وهتفت:

ـ الله. وشك حلو عليّ.

شكرتها ثم حادثتها متسائلاً: ألا تتذكرين أننا تقابلنا منذ عدة أشهر؟ وقفت برهة ساكنة وقد تداخلت مشاعرها بين البهجة لنجاحها وتفوقها وبين محاولة تذكر ذلك اللقاء. صمتت برهة تعيد إلى النظر ثم ابتسمت.

ـ آه أنت المهندس ابن عمى حمدي بتاع النيابة؟

عادت البسمة إلي وجهي أكثر ضياءً و بهاءً.

ـ فعلا أنا عمر حمدي. تصافحنا.

- ألف مبروك.

- مَرسى. أشير إليها.

- مروحة البيت؟. تهز رأسها قليلاً:

- آه

سرنا سويا بدون حديث ولكن الابتسامات المتبادلة من حين لآخر هي حديثنا المكتوم الواضح علي العيون مع تورد وجهينا. ادفع بقدمي اى زلطه أو طوبة تقابلني دليلا على السعادة والسرور بينما وقف ممدوح مشدوها من هذا الصديق الذي أتى معه فغادره وتركه يسير برفقة فتاة جميلة المحيي. فاندهش قائلاً:

- يخرب عقلك يا عمر , دا أنا فكرك دهُل ولما بتشوف بنت وشك بيحمر زى حبة الطماطم , خلاص بقيت أسمنت ومش بيهمك حاجه , على كل حال وفرت الحاجه الساقعه , أروح البيت أبشرهم وأسيب الإتنين المجانين دول يمشوا فى الشمس لحد ما تحمص وشهم.

واصلنا سيرنا ولم تفارقنا الابتسامة. هى تنظر إلي بطرف عينها وأنا أنظر إليها بملىء عيني .. حدثتها.

- قولي حاجه .. تزيد ابتسامتها.

- أقول إيه؟ اتجهنا إلى كورنيش المدينة المواجه لمبنى الجامعة والمطل على بحر مويس المتواضع الحجم. توقفنا سويا فأتي أحد الباعة حاملاً وعاءً ممتلئ بزجاجات مياه غازية تغطيها قطع من الثلج .. اقترب منا والابتسامة الفرحة تعلو وجهه.

- اقول مبروك؟ نظرت إليه وأجبته.

- ايوه .. قول مبروك مرتين. بدهشة قائلاً:

- وماله مبروك مرتين ولو عايزهم سبعة ميخسرش. اقترب مني قائلاً:

- أفتح؟ وقد أمسك بفتاحة زجاجة المياه الغازية وإحدى الزجاجات فأشرت إليه.

- افتح .. أحدث صوتا أعقبه سحابة صغيرة من الصودا بداخلها .. قام بفتح الثانية وهو يعيد نداءه بصوته المرتفع مع تنغيمه موسيقية بفمه.

- المتلج .. تعالى وأفرح مع الحلوين. لا مواخذه , أسيبكم تفرحوا وأبقى أرجع.

غادرنا والتقي مع مجموعة من الفتيات يتحدثن عن النجاح وفى نفس الوقت يشرن إلى زميلتهن والتى تقف معي فى حالة من الرومانسية الواضحة. أعيد حديثي.

- مش بتقولي حاجه ليه؟ بكل خجل وأنوثة:

- أقول إيه؟ أجيبها بعد أن ملت جهتها قليلاً وأحرك زجاجة المياه الغازية يمينا ويسارا:

- تعالى أقولك. بدهشة.

- حتقولى إيه؟

- لازم أقولك

- وساكت ليه؟

- ح أسأل سؤال وتردى عليه .. وتردى عله .. تضاحكنا وملت إلى الخلف ونحن نستند على سور الكورنيش وزجاجة المياه الغازية فى يد كل منا .. يعودنا بائع المثلجات .. أناوله الثمن مع دفع بقشيش حيث ابتسم لنا داعيا الله أن يقرب البعيد ثم اقترب منى قائلاً:

- والنبي تبقى تعز منى على الفرح يا بيه .. تركنا ونحن فى دهشة مكملا نداءه .. المثلج اللى يخلى القلوب تحب وتلهلب.

بعد قليل غادرنا المكان نسير جنباً إلى جنب فى شارع الجامعة تحف بنا أشجار الطريق الباسقة وترنو إلينا من فوق أسوار العمارات عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة فى هدوء عميق متجهين إلى منزل كلٌ منا بعد أن اتفقنا على مواصلة الاتصال وزودتني برقم تليفون منزلها بينما اعتذرت لها عن عدم وجود تليفون بمنزلي.

هـالة

عُدت إلى شارعنا وأنا غارقة فى أحلامي وأحمل جناحين من الحرير المخملي الأبيض الناصع أحدهما نجاحي والآخر ما حدث مع هذا الشاب وقد تلاحقت أنفاسي من سرعة السير حتى باب عمارتنا فتلقفني البواب وزوجته متسائلين:

ـ خير يا ست هالة؟ أبتسم لهما لما لاحظته من الاهتمام مع البساطة التى يتحدثان بها.

ـ الحمد لله .. نجحت .. أطلقت جمالات زوجة عم صديق البواب عدة زغاريد نبهت أسرتي فنظرت والدتي من فاصل درابزين السلم متسائلة:

ـ فيه إيه يا جمالات؟ نظرت إلى امى وهى تشير بيدها

ـ ألف مبروك يا ستي الحاجة. ربنا خد بيد المحروسة ست العرايس ونجحت فى الامتحان , ألف مبروك وأعقبتها بختم النسر وهو عبارة عن عدة زغاريد متتالية لكى يهتم من يهمه الأمر. وقد كان , حيث توالى ظهور السيدات من الجيران ليرسلن بالتهنئة لأعلى لوالدتي ويسقطونها لأسفل لأحصل عليها حيث مازالت محاصرة بمدخل العمارة لهذا الاحتفال العائلي الرائع.

صعدت درجات السلم وكل دور أحصل على تحية جارة أو اثنتين حين أصبح أمام شقتهن فيقدمنها بالقبلات والتهنئة الحارة مع تشميعها وتغليفها بالدعاء.

- "ربنا يبعت ابن الحلال ونفرح تانى"

كانت تلك الكلمات تهزني وتطربني رغم انني أسمعها منذ نمو جسدي وقد أصبحت في نظر النساء عروساً ولكن في ذلك اليوم كان لها وقعاً سعيداً على نفسي وكنت اهتز بداخلي طربا وأخشى أن يفتضح امرى.

دلفت إلى شقتنا ومازالت التهنئة متواصلة وأخيراً عكفت بداخل حجرتي طلبا للراحة .. نزعت الصندل من قدمي وهويت بجسدي على السرير وأنا أكاد أن أصرخ من شدة السعادة والفرحة سواء لنجاحي بتقدير جيد جداً أو لشعوري وميلي إلى هذا الشاب الذي تلاقت قلوبنا على غير موعد منذ ساعة أو أكثر.

كان شعوري بخفقان القلب وتأثير الحب أكبر تأثيراً من نجاحي , فمن المعلوم اننى أنتظر نتيجة الامتحان وأعلم تقريبا مستواي العلمي ولكن المفاجئ هو شعوري بالسقوط من أعلي البرج المُحصن والتى كنت التمس به وأخبئ قلبي وعواطفي عن الآخرين بأعلاه حتى عن الأقرباء وزملاء أبى , لم أهتم بأحد من أبنائهم وقد أغلقت قلبي وعواطفي نحو هذا الشيء ألا وهو الحب والزواج.

اضطرب فكري وهاجمتني الأسئلة: هل ما حدث بيني وبين "عمر" هي حالة من الحب العابر أو هي حالة من الاستظراف المؤقت والذى سيأتي عليه يوم جديد وقد تلاشى مع غروب اليوم السابق؟.

آه , لا اعتقد وأرجو ألا تكون هواجسي حقيقية .. لا أعلم ما فعله هذا الشاب بكل عواطفي ومشاعري ، أشعر بأنه امتزج بكل كياني بل أسمع حديثه العذب ونحن نقف سويا أمام كلية الحقوق نتناول المرطبات ، لا أرغب في التحدث بصوت مسموع حيث أشعر بأن روحه بجواري ، أرجو ألا يسمعني وانا أحدث نفسي الطيبة التى تشجعني على كل ما هو طيب ورحيم .

*****

عمـــر

أقترب من شقتنا المتواضعة الكائنة على مشارف المدينة وقد جمعت ما بين خصائص القرية والمدينة .. فالمنزل بال قديم أعد من الطوب اللبن وأرضيته مُتربة وغير مبلطة وبعض قش الأرز يغطيه من اعلي اتقاء أمطار الشتاء .. أشاهد امى وهى تقوم على نظافة المنطقة التى تقع أمام المنزل حتى يُصبح الطريق الترابي أمامه حسن المظهر ورغم هذا فمازالت الطيور الداجنة التى تقوم على رعايتها تتبعها كأنهم فى نزهة. ألقيت عليها تحيتي:

- السلام عليكى يا امى

- أهلا بعمر حبيبي .. مالك وشك احمر زى ما تكون جاى السكة تجرى .. فيه حاجه حصلت؟

- أبدا يا امى بس لفيت شويه مع صاحبي ممدوح

- يا أبنى سيبك من ممدوح ده .. دا مش وراه غير تعب القلب. بعد الشغل ماسك الطاولة يلف بيها على بيوت صحابه يلاعبهم , ده عامل قهوة متنقلة .. عارف الباعة الجائلين اللى بيقولوا عليهم فى الراديو أهو عامل زيهم

- إيه يا امى. أخسر واحد صاحبي علشان ماسك طاولة أمال لو ماشى ومعاه سحارة بتاعة هدوم وإلا كنبه بلدي كنتي قلتي عليه إيه؟

- يخيبك يادى الجدع .. طيب خش وغير هدومك زمان أبوك جاى من النيابة جعان .. غلبان عمره ما يشترى سندوتش فى الشغل.

*****

صباح اليوم التالي

من تليفون عم عبده بائع الجرائد أحادثها:

- صباح الفل يا زهرة البنفسج.

- أهلا عمر عامل إيه .. يخرب عقلك دا أنت جريء أوى , أول ما البت سعاد الشغالة جابت التليفون ولقيتها بتضحك وبتقولي صاحبتك على التليفون عرفت انك أنت أكيد , مين حيكلمنى؟ ما فيش ولا ولد من الكلية يقدر يكلمني أو يعرف رقم تليفوني.

- معرفتش أنام أمبارح.

- ليه؟ كنت شارب قهوة؟

- قهوة أيه وشاي إيه ؟ معرفتش أنام من الفكر

- بعد الشر عنك من الفكر

- طيب كفاية كلام وعايز أشوفك

- النهاردة؟

- أيوه

- مش عارفه ظروفي , لكن أسمع انا ح أروح الكلية أشوف آخر الأخبار ونتقابل هناك بعد ساعتين.

- خلاص بعد دقيقتين ح تلاقيني هناك!!

- بأقولك ساعتين .. أنت ناوي على إيه معايا .. سيبك من الشقاوة

- أنا ح أروح بعد دقيقتين وأنت تعالى بعد ساعتين او يومين أو شهرين اللى يريحك.

- طيب أسيبك دلوقتى عشان المعلم عبدالعال أبويا صحي من النوم وعايز التليفون .. مع السلامة.

*****

ازدادت أواصر المحبة بين كل من "عمر و هالة" ومضى على تلك العلاقة شهران لم يهرب منهما أسبوعا إلا وتلاقيا فيه سواء بالزقازيق أو القاهرة .. كان واضحا أن "عمر" قد حدث له تغير واضح وملموس خاصة بعد أن اهتم بهندامه مما أدي إلي تخيره لأنواع ملابسه وقد ترك الإهمال جانبا فقد تأكد له أن الحب أسمى شيء وانه يغذى الجسم والعقل والقلب ويدفع الإنسان إلى الرقى وإلي تخير كل شيء جميل.

وضعت أم هالة حواسها حول أبنتها وتأكد لها أنها تمر بقصة عاطفية ساخنة إلى أقصى درجة ولهذا لم تحاول مضايقتها أو غرس أنفها فى شئونها خاصة أنها تعلم مقدار رجاحة عقلها فتركتها حتى تأتى إليها طوعاً واختيارا ً لتخبرها بما حدث لها من تطور.

******

مازالت اللقاءات بين الحبيبين تتم وفى أحد تلك اللقاءات والتى تمت بالقاهرة حيث كانت "هالة"متجهة لنقابة المحامين لتسجل اسمها كما هو متعارف تقابلت مع "عمر" كما سبق وأن اتفقا على هذا .. سارا قليلاً ووقفا طويلاً كما تحدثا قليلاً وتبادلا النظرات لفترات أطول. توجها الى أحد كازينوهات المطلة على النيل وجلسا يكملان معزوفة نظرات العيون الحالمة .. لم ينتبها إلا حينما حضر الجرسون لسؤالهما عما يرغبانه من شراب ولم يجيباه فى بداية الأمر فعرض عليهما الرجل قائمة بما يقدم بهذا المكان .. تخيرت هاله عصير الليمون وتبعها عمر .. تحدثا:

- بعدين يا عمر؟

- بعدين إيه؟

- الحكاية بقت صعبة وبأحس بأن راسي بها وش!!

- وش .. ينهار مش فايت .. بأحب واحده موشوشه!!

- تصور .. آخر صبرك تحب الموشوشه

نظرا جهة النيل يشاهدان أحد المراكب السياحية العملاقة تمخر مياهه وتشق المياه التى تتجه لجانبيها محدثة أمواجا بسيطة نسبيا .. أقبل بائع الياسمين

يعرض بضاعته .. أقبلت عليه "هالة" فرحة سعيدة وقد تعطر المكان بمقدمه .. دفع عمر ما طلبه الرجل بل وأغدق عليه وقد شكرهما طالبا من الله أن ينالا المراد. أمنا على دعواه .. اقترب عمر قليلاً منها وامسك يديها بكلتا يديه ناظراً في عينيها وبكلمات هامسة حالمة:

- هالة .. بعد يومين ح أقابل عمى عبدالعال. بدهشة!!

- ليه؟

- ليه؟ هو انا رايح أشترى سمك؟

- طيب مش تقولي عايز بابا فى إيه؟

- "هالة" بيع قلبك. بيع ودك .. شوف الشاري مين؟

أجابته بضحكة جميلة على سؤاله ثم تكملها. .

- بعت خلاص يا عمر .. والحمد لله .. جبرنا!!

- شوف عهدي مين بعدى ح يصون هولك مين؟

نهضا الحبيبان وسارا على كورنيش النيل وتلاقيا مع بعض الأحبة الذين لا يجمع بينهم سوى الشباب والحب.

اتجها إلي مرسى الفلايك وتخيرا أجملها وطلب عمر من ريس الفلوكه الإبحار بهما بين شاطئى النيل فى تلك المنطقة الجميلة "جاردن سيتي"

تهادت الفلوكه تشق مياه النهر على جانبيها بفقاقيع بيضاء كأنها شرائح فضة مع نسمات الهواء الرطب الجميل والتى دغدغت حواس ومشاعر هالة فانعكس هذا على عمر وأحاسيسه فخرجت من فمه بعض تعبيرات جميلة مؤثرة توضح مدي ما يكنه لها الفتي من حب وإعجاب.

ارتبكت "هالة" ولم تستطع إخفاء دموع السعادة الواضحة الجلية على مقلتيها بل انتقلت كلماته العذبة إلى المراكبى الذي كاد أن يصيبه الاضطراب لما بثه عمر من معاني جميلة فتنبه بعدها إلى دفة المركب.

غادرا المركب وهما فى قمة النشوة والحب وسارا متشابكا الأيدي يرقصان فرحاً وبهجة وسعادة وكل ينظر فى أغوار عين الآخر يطالبه بألا يبتعد عنه وألا يدمر قصة حبهما التي لم تكن فى الحسبان.

*****

فاتح الشاب والديه فيما يشعر ويمر به وانه يُمنى نفسه بالارتباط بابنة المعلم عبدالعال وقد نزلت رغبة الابن على قلب والديه بسعادة غامرة وخشية من الرفض راجين الله بأن يكلل مسعاه بكل خير وقبول. فالكثير من التجار يتمنون مصاهرة الحاج عبدالعال فهو رجل عصامي ميسور الحال وله من الأبناء الذكور أربعة يسيطرون على تجارة الأسماك فى الشرقية والإسماعيلية.

*****

توجه "عمر" إلى وكالة الحاج عبدالعال وبعد لقاء سريع عرض عليه رغبته فى الاقتران بابنته "هالة" ، فوجئ الرجل بهذا الطلب وتوتر وشعر أن مستواه قد هبط بأن يطلب أبن كاتب النيابة يد أبنته ويصاهرهم. تماسك الرجل حتى لا يفشى خبر ما جاء الشاب من اجله طالبا تركه أسبوعاً وسيقوم بالرد عليه.

عاد الرجل إلى منزله ثائراً هادراً ليخبر زوجته بالمصيبة والكارثة التى حدثت له وأن يأتى أحد الهلافيت طالباً مصاهرته .. انتظرته زوجته حتى انتهي من ثورته ثم قالت له رأيها فى كلمات قليلة: عبدالعال. لا تنسى نفسك ولا تنسى إنك تزوجتني وأنت تبيع السمك على طاولة خشب تضعها على رأسك وتظل طوال اليوم تمر بها على المنازل بالأحياء الشعبية بالإسماعيلية.

أضطرب الرجل فقد نسى ذلك العهد ولم يعتقد أن زوجته سوف تحدثه بهذا الخبر القديم ولكنه تماسك قائلاً:

- إحنا ولاد النهاردة.. ابتسمت قائلة: خلاص نسأل ولاد النهاردة .. بصوت مرتفع نادت على أبنتها والتى جاءت تتهادى وقد أطل جمالها وفتنتها من عينيها فأنشرح صدر والديها.

أخبرتها أمها بما قاله والدها.. بقليل من الكلمات أجابت .. أبى إننى أوافق على الارتباط بهذا الشاب وأبغيه زوجا لي.

سقط الرجل فى بحيرة الاضطراب ولم تنفع معه كل شباك الإنقاذ لإخراجه منها ، نهض محاولا السير فشعر بأنه تفسخ ثم تقلب على نار لاسعة على جانبيه وأنكمش بداخله وشعر أن خياشيمه قد أغلقت ولم يعد يستطيع التنفس فجلس ثانية وقد ألقت عليه زوجته ببعض كلمات باردة مهدئة لتعيده إلي حالته وتخلصه من حالة العفن الذهنى والنفسي التى ألمت به وأخيراً أعاد كلماته باقتضاب:

"هالة" أنتِ موافقة على جوازك من ابن كاتب النيابة؟ أجابته :

- ايوه يا بابا .. قال:

- تسيبي ابن المستشار وتجوزي ابن العرض حالجي؟

- بابا أنا باتجوز إنسان ومش بأجوز وظيفة

- ده آخر كلام عندك .. يعني تراجعي نفسك

- دا آخر كلام ومش تحرمني يا بابا من اختياري ، أنا اللي ح أجوز وأنا إللي ح أعيش .. صمت الرجل قليلا وأخرج زفرات ساخنة وقال:

- ألف مبروك يا بنتى.

*****

تم زواج كلّ من "عمر وهالة" فى حفل أسطوري ظللته أساطيل الصيد وتم الضرب بالدفوف على طوالى السمك ورقص إخوتها بين تصفيق الأصدقاء وهم ينادونهم بأسماء الشهرة "الله ينور يا معلم بياضه وآخر 'فل والله يا معلم قاروص وآخر يطالب المعلم شباره ان يقوم برقصته الشهيرة ولكن شقيقهم الأصغر قنديل أعترض وقد أيدته زوجته نجمة البحر".

أعد والد العروس شقة حديثة الإنشاء فى عمارته القريبة من جامعة الزقازيق وقام بتأثيثها بأحدث أنواع الموبيليا ولم يبخل الرجل بأي شيء على أبنته الوحيدة وآخر العنقود وقد أسعد هذا العروسان وسارت حياتهما رغدة هنيه ، لم تفكر "هالة" فى العمل حيث شعرت ببشائر الحمل فأرادت أن 'تعطى أبناءها حقهم الإلهي الذي قرره الخالق لهم بينما واصل "عمر" عمله فكان يغادر منزله فى السادسة صباحا ويعود فى التاسعة بعد أن يقطع مسافة كبيرة حتي يصل إلى عمله فى حلوان.

أنجبت "هالة" طفلة جميلة وبعدها بعامين أنجبت طفلا ذكرا".. شعرت بأن مكيال السعادة قد فاض عليهما ولهذا شكرت ربها وخشيت أن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن وتعود شباكها فارغة بعد أن يهرب حلمها وسعادتها.

*****

قامت الدولة باتخاذ إجراءات اقتصادية تمشيا مع اتفاقية التجارة الحرة "الجات" وبالتالي تم إلغاء القطاع العام وتم خصخصة الشركات والمصانع وبيعها .. كان لتصرف الحكومة واندفاعها بدون روية وحذر الأثر السيء على العاملين وبهذا أصبحت تتصرف مثل الأنعام عندما تشاهد جدولا من الماء وحرارة الصيف الشديدة فتندفع إليه غير عابئة بسرعة التيار وحيث أنها لا ترى قاع الماء فمن الممكن أن يكون هناك شيء أسفل السطح ضارا بها .. هذا ما حدث ، فقد بيعت المصانع ومنها مصنع الأسمنت الذي يعمل به "عمر" ورافقت حملات البيع تلك إشاعات كاذبة مُلفقة بأن العاملين عند بيع تلك الشركات سوف تزداد حالتهم المادية تحسنا حيث أن الخواجات والأجانب سوف يغدقون عليهم بالمال الوفير فهم قوم كرماء يقدرون العامل المصري.

ثبت كذب وزيف هذا حيث أن المشترين لتلك الشركات هم من أصحاب السطوة والذين هبطت عليهم أموال البنوك فأفسدوا في الدولة وحلوا محل المهندسين والقيادات المصرية واعملوا فى الشباب ذبحا وكله بفلوسهم كما يقولون.

أحيل "عمر" إلى معاش مبكر وكل ما حصل عليه عدة آلاف من الجنيهات حتى المعاش لم يحصل عليه حيث أنه لم يبلغ النصاب القانوني من فترة الخدمة التى يستحق عنها معاشا.

جلس الشاب فى منزله ولم يكمل عامه الثاني والثلاثين .. ماذا يفعل؟ ارتبك وانهارت كل آماله وتحطم حصن مستقبله تحت قرارات أصدرتها أجساد مترهلة ترتدي البدل الشيك ويسبق أسماءهم لقب الأستاذ الدكتور وفى الحقيقة هم خونه بكل المقاييس. ساعده البعض فى الحصول على عقد عمل بإحدى دول الخليج ودفع نظير هذا مبلغاً من المال .. سافر على مضض فهو يعلم الكثير عن بعض تلك البلدان وهناك علم أكثر فقد عين فى وظيفة عامل فى أحد عنابر التشغيل .. رفض استلام العمل وتعنتوا معه ولكنه صمم على العودة .. عاد إلى وطنه بعد أن لاقى الكثير من صنوف الضيق والألم والحقد ضد مصر والمصريين.

عرض عليه الحاج عبدالعال أن يعمل معهم فى تجارة الأسماك لكنه رفض هذا العرض بعد أن أكتشف بعضاً من زفارة معاملاتهم ولهذا فضل البقاء بعيدا عنهم واكتفى بعلاقة الزواج.

*****

في احد الأيام غادرت "هالة" شقتها لزيارة والدتها كعادتها مثل كل يوم تاركة هذا الشاب الحزين الذي لا يجد حلاً للمشكلة التي أمامه فقد أصبح عاطلاً وهو مازال فى بدايات العقد الثالث من عمره ، جلس حزينا وأصبح لا يدري كيف الخروج من تلك الأزمة ، تراوده أسئلة لا تجد لديه إجابة

شافيه ، يناجي ربه بصوت مسموع لعل الله يسمعه حين يرفع من نبرات صوته: يارب .. أنا فقير مثل أبي وجاءت حرب عام ١٩٦٧ فتركنا المكان والأصدقاء تحت القصف المدفعي وأصبحنا غرباء في وطننا ، تعلمت بعد أن دفعت ثمنا باهظا من كرامتي وكبريائي ، لم أعش مرحلة الشباب مثل باقي الشباب الذين في مثل عمري ، وعملت العمل البدني المتعب مع سوء معاملة الناس ، بعد أن أنجح وأتخرج مهندسا وأعثر علي عمل يكفيني شر الحاجه وأوفق في زوجه سعدت بالاقتران بها وأنجبت لي الولد والبنت ، فجأة تطيح بي قوانين الدولة لأجد نفسي علي قارعة الطريق بدون عمل ، لقد أصبحت "عواطلي" وشريد وتانه لا أجد مرفأ لسفينة حياتي المهددة بالغرق ، من غيرك ألجأ إليه ، أتساءل ولا تغضب من سؤالي : ليه كده وعلشان إيه أتبهدل في حياتي وقد أصبح طريق حياتي مظلماً أسود اللون ولا نهاية له بفرج قريب.

يارب .. أرجوك بقدرتك ان ترفع نقمتك وغضبك عني ، يارب دائما ما تطالب العبد بأن يسألك إذا احتاج لأي شيء وأنا أحتاج لأشياء كثيرة وأنت تعلمها فلا تتركني نهبا للأفكار السيئة كي أحافظ عليّ كرامتي وكبريائي وقد اقتربت كرامتي أن تُهان بين أصهاري وزوجتي ، إذن أين أجد الأمان؟

*****

توالت عليه الأيام وهو مازال عاطلا وفي إحداها وأثناء جلوسه مع صديقه ممدوح وبعد أن انتهيا من لعب الطاولة سأله صديقه: لماذا لا تبتاع عربة نصف نقل تعمل عليها حتى يأذن الله لك بعمل مناسب؟ .. دُهش

"عمر" محتجاً: كيف هذا وبعد أن ادرس وأتعلم وأعمل مهندساً أعود وأعمل سائقا؟

أوضح له صديقه .. أسمعها منى أيها الصديق العزيز .. لقد ضيقت الظروف عليك وزنقتك فى خانة "أليك" وما عليك إلا الهدوء والتروي حتى يمكنك إنقاذ باقي "القشاط" وإلا ضاع كله وتصبح خانة أليك خشبا.

سمع كلام الصديق ولم ينبس بكلمة فقد أغلق فمه وكأنما خاطه بدوبارة. صمت قليلا كأنه استوعب الموقف. بعد ان عاد إلي منزله داعب زوجته بما يفكر فيه فثارت منه غضبا وأنه سيضعها فى موقف حرج أمام عائلتها وصديقاتها وبعد أن كانت متزوجة من مهندس أصبحت متزوجة من سائق وشيال. غضب الفتى وتركها ليحصل على راحته.

وفي اليوم التالي أتجه مع صديقه وأبتاع سيارة نصف نقل ودفع نسبة من ثمنها مقدما والباقي يُقسط على عدة سنوات. اليوم الذي يليه قام بترخيص السيارة وأكمل أورقها فى قلم المرور وأصبح مستعداً لدخول مجال العمل الفعلي.

استاءت منه "هالة" وأصبحت تمضى طوال النهار فى منزل والديها احتجاجا على تصرفه وتعود منزلها آخر اليوم وهى فى حالة من الضيق كما يعود عمر منزله بعد انصرام اليوم فى اشد حالات الضيق والتعب خاصة من سوء معاملة السائقين له فى موقف السيارات أو أمناء الشرطة أو الزبائن الذين يطالبونه بحمل الأمتعة والأجولة إلى المخازن , لقد أصبح شيالا أكثر منه سائقا كما قالت له زوجته قبل ذلك .. جلس يفكر , ماذا يفعل؟

كل عمل ومهنة له ضريبة ومتاعب لا بد أن يقابلها حتى عمله كمهندس حيث كان يسافر أربع ساعات صباحا وأربع آخري للعودة .. لا توجد وظيفة مريحة غير الشحاذة فإذا قبلتها على نفسي فسوف ارتدى جلبابا قديما ممزقاً واربط إحدى عيناي واجلس على قارعة الطريق رافعا يدي بالدعاء لكل من يسير أمامي بطول العمر والرزق الوفير وسوف تهال عليّ الأموال , هل أقبل هذا؟

أصبحت زوجته تحضر له الطعام من منزل أسرتها فلم تعد تطهى والرجل يتناول طعامه معتقداً بأن زوجته هى التى قامت بإعداده. فى أحد الأيام وبعد أن أستعد لتناول طعامه والذى يتكون فى العادة من الأسماك ومشتقاتها شاهد أشواك السمك بعد نظافته بل شاهد "بذور لب البطيخ" بين قطع الأسماك المقلاه وهذا يعنى بأن أحداً تناول طعامه وتناولً البطيخ وقذف بلبه من فمه على باقي السمك.

نهض بضيق متسائلاً عن من طهى هذا الطعام وبعد أن علم منها الحقيقة وبخها على أنها أحضرت بواقي طعام عائلتها ليتناوله .. حدثته بهدوء .. وما العيب فى هذا؟ ألا يعاملك زبائنك هكذا بعد ان تقوم بنقل متعلقاتهم وتجلس أمام بيوتهم تتناول طعامك على قارعة الطريق.

دهش الشاب من حديث زوجته لكنه تماسك وأجابها : هذا الحديث توجهيه لوالدك والذى كان يحمل طاولة السمك ويسير حاقي القدمين بحواري الإسماعيلية لكن أنا مهندس .. سبته وصرخت به ، تبادل الاثنان السباب الذي طال كل شيء ولم تعد هناك محاذير ، دفعها بيده مغادراً شقته.

سار فى طريقه إلى الكورنيش وأمام كلية الحقوق التى شهدت مولد حبهما وقف يناجي هذا الحب الذي سوف يذبل بعد ان ضعفت شوكته وترك عمله قهراً وضغطاً من الدولة .. لم يجد أحدا يقف معه بل أصبحت زوجته الحبيبة تسمعه كلاماً مؤلماً على نفسه ونفس اى رجل حر.

*****

عاد بعد ساعة من مغادرته منزله فشاهد والدها وإخوتها الأربعة متواجدين بشقته وقد هدده والدها بالويل لما قاله عنه وعايره بأبوة كاتب النيابة وحدث تراشق بالحديث وازدادت الكلمات السيئة بينهما فأندفع أحد أبنائه وتشاجر معه وكاد الجميع أن يتعاركوا بالأيدي وارتفعت الأصوات بالسباب المتبادل وتجمع الجيران وأنتهي الشجار بطرده من شقته طالبين منه طلاق أبنتهم ,هبط العمارة بين استنكار سلبي من السكان لما حدث له.

أستقبله عم فتحي البقال المجاور للعمارة ليهدأ من خاطره وجلس قليلاً بدكانه ولكنه شاهد بعض الجيران يشيرون إليه فغادر الدكان إلي الشارع حيث شاهد أسرة زوجته تقذف بكل متعلقاته من البلكونة إلى قارعة الطريق , ساعده البعض وجمعوا أغراضه ووضعوها بالسيارة النصف نقل , غادر المكان حزينا لما حدث.

بعد أن جمع أغراضه وملابسه الملقاة فى الشارع أمام أعين الجيران والمتطفلين وسباب من إخوتها من بلكونة شقته قاد سيارته وأتجه إلي أقرب أرض زراعية وجلس أسفل شجرة صفصاف وأمامه جدولاً صغيراً يروى الأرض بالمنطقة. دمعت عيناه بدموع تملأ ذلك الجدول معاتبا حبيبته.

يا عطارين دلوني

الصبر فين أراضيه؟

قادَ عمر السيارة ولا يعي إلى اى مكان يتجه وقد أظلمت الدنيا أمام مرآة حياته وشعر بأنه لا ضياء فى مستقبله بعد اليوم .. أعاد شريط ذكرياته أثناء قيادة السيارة متسائلاً: ماذا حدث يا ربى؟ أفصل من عملي وأتجشم نفقات سفر للعمل بإحدى دول الخليج وأكتشف كذب وخداع من سهلوا لي السفر لكى يحصلوا على إتاوة منى .. أعود لكى أعمل بشرف وهو عمل شاق تتخلله المهانة والذل والإرهاق ورغم هذا فأنا سعيد ومسرور به ولم أخبر زوجتي بما يضايقني ويؤلمني وأقوم بدفع مصاريف الأسرة كالسابق بل زدت عليها وأدفع أقساط السيارة فلا أقل أن أجد الراحة والسكون والتشجيع , أن ما تقوم به زوجتي لهو أسوأ ما يكون ولا أعتقد أن اى رجل يحمل قسطاً من الكبرياء والكرامة يقبل على نفسه هذا .. سامحك الله يا زوجتي.

تنبه إلى شخص يشير إليه بيده طالباً توقفه .. توقف فأقبل الرجل وحياه ثم سأله أن كان مستعداً لتوصيله إلى قرية سماكين الشرق .. وافق .. ركب بجواره واتجها إلى أحد الأماكن حيث وضع بضاعته على ظهر السيارة وقاد عمر السيارة إلى هدفها , وصلا المكان بعد منتصف الليل .. قدم يد المساعدة للرجل وعاونه فى تفريغ الحمولة فنفحه الأجر وزاد عليه لما شعر به من ود نحو هذا السائق وسأله هل يمكنك أن تأتى قبل الخامسة مساء لتعيدني إلى الزقازيق بعد أن ينتهي السوق؟ أشار إليه بالموافقة.

ركن السيارة جانبا وأحضر أغراضه التى قذفت بها زوجته وعائلتها من بلكونة شقته بالشارع وضع كل هذا فى شيكارة وأدخلها الكابينة وأغلقها وعاد للخلف لصندوق السيارة ليحصل على قسط من الراحة.

بعد ساعات قليلة أيقظه شخص راغباً فى نقل بعض أغراضه , نهض وانطلق مع الرجل وأنهى كل شيء وعاد برزقه .. لم يهنأ بالراحة فظل طوال الليل ونهار اليوم التالي فى عمل مستمر وكان جميع زبائنه كرام الخصال وأغدقوا عليه على غير العادة رغم أنها كانت المرة الأولى فى تعاملهم معه.

عاد بالتاجر إلى مدينة الزقازيق وأخبره الرجل بأنه يرغبُ فى نقل حمولة بضاعة قبيل الفجر من مكان (....) وحدده له فهل يمكنك أن تحضر إلى هناك قبل الفجر .. سكن قليلاً وأخبره بأنه سوف يذهب من الآن وينتظره هناك. دهش الرجل فأمامه ثمان ساعات ولم يحاول الاستفسار ووافقه على ذلك وأخبره بأنه سوف يجد الغفير "مخيمر" بجوار المخزن.

جلس "عمر" مع الغفير وتناولا العشاء ثم أعقبها شرب الشاي وأعد الغفير عدة الكيف من المعسل والجوزه وسأله الشاب عن مكان يسكن به وأجابه الغفير بأن هناك حجرة فارغة أعلا هذا المخزن وسوف أساعدك غدا لمقابلة الحاجة "تحية" مالكة العقار لهذا الغرض .. شكره كثيراً على تلك الخدمة.

جرت كل الأمور بسهولة ويسر وشعر الشاب بأن تلك السيدة مثل أمه وتعاطفت معه وأستأجر منها الحجرة وبدأ يقوم على تأثيثها قطعة قطعة حتى

انتهى منها وقد أضاءت شمعة حياته بنور من عاونه من الناس وأنعم الله عليه بالرزق.

كان "عمر" يقوم بزيارة والديه كل عدة أيام وقد حاولا حل مشاكله ولكنه رفض كل هذا حيث قال: لقد كُسر أهم شيء فى الحياة الزوجية وهو الاحترام والمودة وتقدير الزوج وكل هذا ضاع أمام قروش السماك فآثر السلامة رغم ما كان يكابده من آلام لابتعاده عن أبنته وأبنه الصغير.

أستمر على عهده بأن يقوم بإرسال النفقة الشهرية إلى زوجته وأبنائه مع جارهم البقال شريطة إحضار إيصال بذلك حتى لا تقيم أسرتها قضية ضده , أستمر على هذا الوضع عامين متتاليين وقد أنهمك فى عمله وحياته وتمرس على أسلوب السائقين فى عملهم حتى يتجنب سوءهم.

*****

في أحد الأيام وأثناء جلوس صديقه ممدوح مع بعض الأصدقاء علي القهوة للتسلية بلعب الطاولة شاهد سيارة عمر بالجهة الأخري من الشارع وبعد قليل شاهد عمر وقد وضع ثلاجة علي ظهره وربطها بحبل ويسير منثني الظهر ويتحرك بصعوبة لثقل الحمولة والخوف من سقوطها وتلفها .. كاد ممدوح أن يبكي سوء حظ صديقه والذي أظلمت الدنيا في وجهه سواء من العمل أو من مشاكله مع زوجته ، بعدها شاهد الصديق يجلس علي الدكة الخشبية التي يجلس عليها بواب العمارة يلتقط أنفاسه وبعد قليل جاءه صاحب الثلاجة مقدما له أجرة التوصيلة والمشال , شكره وقبل النقود التي ناولها له واستقل سيارته متجها للبحث عن رزقه وعمل آخر ، توقف ممدوح

عن لعب الطاولة ثم غادرها متجها إلي منزله حزينا لما آل إليه حال صديق العمر.

*****

هـــالة

جلست هالة فى احد الأيام تتساءل:

- إيه اللى حصل بيني وبين "عمر" ؟ كده يا عمر تهون عليك العشرة وقبلها حبنا اللى أتكلم عليه كل اللى عرفونا وكمان أنا وقفت قدام أهلي علشان أجوزك تقوم تعمل معايا كده؟ أخص على الزمن الغادر واللي يخلى كل واحدة من نسوان اخواتى تحط مناخيرها فى حياتي وتعمل مُصلحة وناصحة وهما اللى ما كملوش تعليمهم , يعنى يا شباره يا خويا كان لازم تندفع ويطول لسانك على "عمر" قدامى وقدام بنته اللى كانت بتعيط وهيا بتشوفك نازل شتيمه فى أبوها. ده يحصل؟

هدمت عشي ونلتنى وخلتني سيرة على كل لسان .. لكن أنا زعلانه من أهلي ليه؟ ما هو أنا السبب .. أنا اللى طولة النهار قاعدة عند امى وأرجع قبل رجوع "عمر" ولا أجهز له أكل ولا حاجه , كمان حكاية شوك السمك وفضلاته ولب البطيخ اللى لاقاه فى وسط السمك لما جه يا كل .. ده مش معقول ومش ممكن أعمل حاجه زى كده ولا ماما كمان؟ يكون مين عملها؟ حاجه تكسف وتخلى اى رجل يجنن ويعمل أكتر من كده .. يارب .. ربنا يهديك يا "عمر" نفسي أشوفك وترجع تانى ومحدش عارف مكانك فين.

*****

عمـــر

- أسطى .. رايح الصالحية؟

- لا والله .. مين؟ فوزي!! يخرب عقلك ..

- لكن أنتِ مين؟

- أنا مين!! مش عارفني .. "عمر" شركة مصر للأسمنت وإلا نسيت؟

- ياه على الفرصة الجميلة .. فين أيامك يا عمر والله ما عرفتك وأنت متكلفت وعامل زى السواقين لكن كل ده ليه؟

- المهنة بتحكم .. لكن نازل أسئلة .. إيه اللى جابك هنا وأنا عارف من أيام الجامعة إنك من المنوفية.

- أحلت الى المعاش المبكر من شهر أنا وتلاته زمايلنا وأنت أكيد تعرفهم؟

- مين دوول؟

- رشاد المنصوري وعثمان الأسيوطي ومجدي الدمنهوري.

- ياه .. العيال الحلوة دية سيبوهم الشغل؟

- تصور وكمان غيرهم .. مصيبة حطت على مصانع البلد , يظهر لما اليهود معرفوش يحاربونا في ٧٣ فدخلوا من الناحية دية يخربوا الاقتصاد ونفضل كده ونستلف وبعدين منعرفش نسد الدين ونعيد الكره تاني ويحجزوا علينا ويحتلونا تانى تحت علم الأمم المتحدة.

- بلاش أفكار سوده

- لا سوده ولا بيضه هو ده الوضع

- ايوه لكن مقلتليش إيه اللى حدفك على الشرقية؟

- عرفت أن فيه جمعيه استصلاح أراضى بتوزع قطع أراضى للزراعة على الشباب اللى عايز وسعرها كويس قلت أعمل حاجه بالمكافأة بدل ما تنصرف فى كلام فارغ.

- زين العقل .. طيب هيا فين؟

- مش عارف فقلت أجى أسأل ..

- حتسأل فى الجبل مش معقول .. عرفنى باسمها ..

- أيوه .. بص يا سيدي .. أسمها جمعية ازرع أرضك وهيا مسجلة واسم رئيسها المهندس حنفى طوبا.

- بتقول مين؟

- بأقول حنفى طوبا

- ده عز المعرفة , دا يبقى أبو صحبي وحبيبي الروح بالروح ممدوح ملك الطاولة فى الشرق الأوسط !! ياه عليك يا دوحة ولا جاب لي سيره الله يقويه لسه مشغول فى الطاولة اللى أكلت عقله وإلا تلاقيه أخد له كام دش فى البرد ده وخصوصا أن نظره بقي شيش بيش.

- والنبي يا "عمر" تكلم صاحبك ممدوح أو أبوه على أنه يسلمنا حته أرض

- طيب .. أكلم عم حنفى طوبا أحسن لكن أكلم أبنه ممدوح مفتكرشى لأنه حياخد منك تمن الأرض طاولات وشطرنج !! بتضحك .. بكره تقابله وتعرف كل حاجه.

- أسمع .. تعالى نروح الجمعية أحسن بدل اللف فى الجبل .. أنت عايز كام فدان؟

- أنا أعرف ان كل واحد مش بيزيد عن عشر فدادين

- سهله نقوله على عشره لك

- أصل أصحابنا اللى قلت لك عليهم وسيبوهم الشغل عايزين هما كمان

- طيب ما يجراش حاجه

- مكانهم فين؟

- فى الصالحية الجديدة

أستمر الحديث بين الصديقين والتى جمعتهما الصدفة وقبلها الدراسة بالجامعة ثم الإستغناء عن العمل .. وصلا الى مكان الجمعية واتجها الى الداخل ومن حسن الحظ كان المهندس حنفى طوبا متواجدا وأستقبل صديق أبنه بالترحاب كذا مرافقه .. أخبره "عمر" برغبة صديقه وقد وافق الرجل ولكنه أخبرهما بأن لديه قطعة واحدة متبقية من التقسيم الأول وهو ينتظر رجال المساحة للانتهاء من تقسيم باقي الأرض .. عرض عليهما شراء القطعة المتوفرة حاليا والتى تبلغ مساحتها خمسة وخمسون فدانا وسوف يحصل للجمعية على ثمن خمسون فدانا فقط حيث أن بها جبل من الرمال تصل مساحته الى ما يقارب الخمس أفدنة.

حاول معه "عمر" أن تكون المساحة أربعون فدانا من أجل زملائه فكل منهم راغب بعشرة أفدنه. نظر إليه الرجل قائلا :

- ايوه انا عارف وعلشان كده أدخل معاهم وخد لك عشر فدادين , أمال أنا أساعدهم ومش أساعدك .. أعتذر "عمر" بأنه غير متفرغ للأرض ولكن الرجل وصديقه شجعاه على ذلك.

اليوم التالي حضر الشباب الخمسة ودفعوا المستحق عليهم إلى خزينة الجمعية وُحرر لهم خطاب تخصيص كما أخبره المهندس حنفى بأن يطلب من ابنه ممدوح بأن يرسل بعض زملاءه من المساحة لتقسيم الأرض .. شكره الشباب وغادروا الجمعية سعداء كما قدموا شكرهم إلى صديقهم "عمر" أيضا حيث تمت كل الإجراءات بسرعة.

اتفقوا فيما بينهم بأن يتركوا هذا الجبل الرملي حيث أنه لا فائدة منه ويمكن أن يُصبح ضارا بان تقوم الرياح بنقل الرمال منه إلى الأرض التى سوف يستصلحونها كما أنهم سوف ينتظرون إنتهاء مهندس المساحة من عمله ثم يجرون "قرعة" وكل واحد منهم يتسلم القطعة التى يختار رقمها بيده فتصبح من نصيبه.

توالت الأيام وأنشغل "عمر" فى عمله لكنه علم من صديقه ممدوح بأنه قام بتقسيم قطعة الأرض وحذره من أن القطعة المجاورة لجبل الرمل لأنها سوف تسبب لهم مشاكل كبيرة فى المستقبل خاصة أثناء هبوب الرياح والتي سوف تطمر الزراعة وتفسد أي محصول.

مرض "حمدي النمر" والد "عمر وظل أبنه بجواره أثناء مرضه مهملا عمله ولكن الرجل لم يستجب للعلاج حيث كانت المنية هى صاحبة الكلمة العليا فقابل ربه .. مكث "عمر" فى منزله يتلقى واجب العزاء من الأحبة والأصدقاء خاصة أصدقاء والده اللذين ربطتهم به صداقة ومحبة لوجه الله دون أن يحصل من اى منهم على اى عمولة وجاءت سيرته العطرة على ألسنتهم خلال واجب العزاء.

دُهش "عمر" لأن أصدقاءه الأربعة والذين أشترك معهم فى شراء الأرض لم يأتوا لتقديم واجب العزاء فى والده رغم أنه قام بالاتصال بالبعض منهم لكنه عاد وأعطاهم العذر فيما حدث.

استمر عمر في متابعة أمه وكان يقوم علي زيارتها ويقدم لها كل مساعدة ممكنة ، في إحدي الزيارات أعادت رغبتها بالتدخل لمحاولة إنهاء مشاكله مع أصهاره ولكنه ظل علي عناده وأن ما كسر لن يعود كما كان حيث أنه شعر بعدم الاحترام وخاصة من زوجته أم أبناءه.

انتهت فترة الحداد وذكرى الأربعين فنهض "عمر" لاستئناف عمله وفى إحدى تلك الجوالات كان عائداً من طريق الصالحية الجديدة مرورا بقطعة الأرض التي يمتلكها مع أصدقائه والتى تطل على الطريق الاسفلت ولكن من جهة جبل الرمل.

توقف الشاب وُدهش لما شاهده من وجود رجال وأطفال وجرارات زراعية تعمل بالأرض , غادر سيارته وأخترق جبل الرمل ووصل إليهم حيث تقابل مع احد أصدقاءه .. أنه مجدي .. تحدث معه وكيف قاموا بتقسيم الأرض دون تواجده فتلعثم فى أجابته وأصطحبه إلى باقي الأصدقاء واجتمعوا سويا حيث أخبروه بأنهم انتظروه ولم يأتي ولهذا قمنا بتقسيم القطع وتركنا لك نصيبك.

أجاب وهو ينظر إليهم بدهشة مشيرا لهم على الأرض .. إنكم لم تتركوا لي سوى الجبل والعشرة أفدنة المجاورة له وكلها تباب وهضاب رملية ..

أجابه أحدهم بأن هذا هو نصيبك , حزن الشاب وشعر بأنه يكاد أن يصاب بالجنون حيث قال مخاطباً نفسه:

ومازال قلبي يدق فى صدري وقد جمحت أفكاري فأردتْ كبح جماح غضبى فجذبت حبال صبري حتى تهدأ رأسي من أثر ضربات حوافر الضيق التى رافقتني فى مشوار معاناتي وآلامي.

غادر الأرض والدهشة والتعجب تغلفه من بني الإنسان الذي وصل جشعه وطمعه إلى أبعد مدى. فى المصنع أسُرح مع العديد والثمن بضعة جنيهات وفى الخليج يكذب على واكتشف أن العمل ليس مناسبا لي والذى لم نتفق عليه قبل السفر وتحمل نفقات ومشاق السفر ومع زملائي أساعدهم فيما يرغبون وأنا رافضٍ هذا العمل يتوسلون إلي لأنضم إليهم حتى أخفف عنهم العبء المادي وينتهزون فرصة أنشغالى بوفاة أبى فيطعنوننى من الخلف بدلا من أن يقفوا معي ويقدموا لي العزاء فى أعز الناس إلىّ. كما أن زوجتي تجلس فى منزلها على راحتها وتحيا مع أطفالها وانا المشتت وأعمل وأرسل إليها بالأموال حتى تنفقها .. لقد ُخلقت لأعذب وليس لأعبد.

عنـايات

أتجه إلى قريتي القريبة من مدينة أبو كبير والسعادة والفرحة تطيران بي من على الأرض وتكاد الريح تحملني مثل الريشة التى تحملها وترفعها إلى عنان السماء .. لقد تخرجت من كلية التربية بجامعة الزقازيق وقد أصبحت مُعدة لأن أعمل بالتدريس فى مجال الرياضيات وهذا تخصصي.

أقترب من منزل أسرتي والفرحة هى كل شيء ولا أشعر بأحد قريبا منى فكأني أحيا بمفردي من فرط السعادة . منزلنا يقع على الطريق مباشرة ولكن للخلف عدة أمتار والمساحة الفارغة أمامه تجتمع بها الأسرة وأصدقاء أبى فى المناسبات أو سهرات رمضان الصيفية وفي الخلف حديقة تتولى امى العناية بها ولم تكلفني بأي عمل طالبة منى الحصول على شهادتي الكبيرة كما كانت تخبرني وهى تدعو لي بأن يسترها الله معي وأنجح وأعمل وأتزوج مثل شقيقتاي الأكبر منى.

أشاهد جمعا من الناس وحركة غريبة في المساحة الفضاء أمام المنزل , غادرت السيارة الأجرة التي أقلتني وأسرعت إلى منزلنا لأخبر والدتي بنجاحي وتفوقي هذا العام ولأحصل منها على المنحة الربانية ببعض القبلات وحضنها الحنون.

شاهدتني بعض النساء فأفسحن لي المكان واخترقت صفوف البشر إلى داخل المنزل وقد هاجمني شعور معاكس لما شاهدته منذ هبطت من السيارة

.. تبخرت أحلام السعادة التى كانت تغلف عقلي وخيالي وطرد الشك كل أثر لفرحة أو بسمة .. بداخل المنزل أشاهد أمي تنام على كنبة بلدي وبجوارها خالتي بينما يقف أبى وبجواره رجل يرتدى بذلة علمت من تصرفاته وما يحمله من أدوات أنه الطبيب.

ترك الطبيب ذراع امى ونظر إلى أبى بضيق وحزن وبكلمتين قالها "البقية فى حياتك". غادر المنزل كشهاب فى السماء , طاردته صرخات خالتي وبعض النساء بينما كنت أقف وقد أظلم ضياء حياتي وخبت شمس مستقبلي وظللت ساكنة ولكن دموع أبى هى التى حركت مشاعري نحو مصابي الفادح , فقد بكى الحامي والمدافع والمؤنس والمساند والقوى وصاحب الكلمة والآمر الناهي , بكى الأب الحبيب على فراق الحبيبة .. اندفعت إليه أختبئ في صدره حتى أشعر بالأمان وسمعت ضربات قلبه وتشنجات صدره.

مضى يومان وأنا مازلت ارتدى ملابس الحداد ُحزنا على امى وشعرت أن المنزل أصبح مهجوراً رغم وجود أبى وشقيقاتي ولكن العطف والحنان ولى مع وفاة امى , بعد عدة أيام نهض أبى من كبوته طالبا من شقيقاتي العودة إلى منازلهن وطلب منى التقدم للعمل بالتربية والتعليم.

أنظر حولي فلا أجد معنى للسعادة أو البهجة , فقد ولى كل شيء معها , أنظر إلي أبى وأشاهد الحزن قد غطى وجهه وعيونه جامدة وفكره تائه. جلست أمام منزلنا عصراً أحادثها:

امي: كيف تركتني وحيدة في تلك الحياة؟ لقد أصبحت بدون عطف أو حنان .. أتذكر أيام طفولتي وأنت تقومين علي رعايتي .. أتذكر ضحكاتي وأنت تقومين علي نظافتي واستحمامي وأبتلع بعضا من فقاعات الصابون والبعض يدخل إلي عيني فأتألم وأبكي صارخة وأنت تقومين علي علاج ذلك بوضع قليل من الماء في عيني حتي يزول سبب بكائي وألمي .. ياه يا أمي الحبيبة .. أين أنت حين كنت تعدين لي ملابس العيد من فستان أنيق وحذاء أبيض وفي الصباح بعد عودة أبي من صلاة العيد تنهضيني مع شقيقاتي وتطعمينهم وتجلسيني علي ساقيك وتطعمينني رغم أنني أصبحت قادرة علي تناول الطعام بمفردي .. أين أنت حينما تقومين علي تصفيف شعري ووضع "فوينكة" من الستان الأحمر بشعر رأسي ثم تضعي بحقيبة يدي الصغيرة بعض من النقود وتقبليني وأنا أغادر المنزل برفقة شقيقاتي وتقومين علي تحذيرهن من الغفلة عني وهن يلهون بالمراجيح.

ما هي تلك الدموع الغزيرة؟ أعاود ذكرياتي الجميلة والتي لن تعود مهما توفر لدي الجميع من عطف وحنان .. لن تعود تلك الأيام لأنني لن أعود طفلة صغيرة تحصل علي كل حب من بالمنزل سواء أنت أو أبي الرقيق أو شقيقاتي اللائي كن يتسابقن للحنو والعطف عليّ وتشميع كل كلمات حبهن بقبلات متتالية لي.

أجلس وحيدة أمام باب المنزل والظلام حالك وأسمع أصوات نقيق الضفادع وصرصار الغيط ولا أجد الأنيس ولا الحامي لي ، ماذا لو حدث

لي شيء يضايقني أو أمور من التي تقابل البنات في مثل عمري؟ هل أتجه لأحدي شقيقاتي أبثها ألمي أو صديقه أعلمها سري؟

أين طعامك الجميل والتي تسبقه الرائحة الذكية المنعشة لكي أقدم عليه بسعادة ورغبة في التمتع به ، أين شعوري وأنا نائمة وأشعر بك وأنت تحنو عليّ وتحكمي الغطاء عليّ حتي لا أشعر بالبرد ثم تهدينني قبلة تشعرني بهدوء وراحة البال وأعود فأغط في نومي سعيدة فرحة ، لم أكن أتصور أن يأتي هذا اليوم وأفتقد كل معاني السعادة والبهجة ، أمي ... أجيبي علي أسئلتي واستفساراتي ، هل أطمع في أن تزورني في المنام لأتمتع بك وأنا لست في وعيي بعد أن ضنت عليّ المقادير بأن أفتقد وجودك وأنا بكامل وعيي ، سوف أنهض وأغتسل وأصلي لله أن يهدأ من حزني وفزعي ولا اعتراض علي قضاءه.

صباح الغد سوف أتوجه إلى المنطقة التعليمية بالزقازيق وأقدم أوراقي للعمل كمدرسة. بعد صلاة المغرب جاء أحد أصدقاء أبي لتقديم واجب العزاء والذي يعمل بدولة الكويت , بعد جلوسه لفترة وجلوس زوجته وابنتيه معي عرض الرجل أن يتقدم بأوراقي للعمل بدولة الكويت , وافقه أبي بينما كنت معارضة هذا الرأي خاصة إنني سوف أبتعد عن بلدتنا وأصبح غريبة منسية ووحيدة كما أحسست يوم وفاة امي.

بكل طيبة الأب وطاعة الابنة سلمت الصديق أوراقي وقد علمنا منه إنه سيعود إلي عمله بعد أسبوع تاركا أسرته والتي سوف تلحق به نهاية الأجازة نظرا لارتباطه بأعمال هناك وسوف يخبرنا بتلغراف في حالة قبولي.

اتجهت لمبني التربية والتعليم بالشرقية وقدمت نسخة أخرى من الأوراق لشعوري بأن ما تحدث عنه صديق أبى لن يتم خاصة أن البعض أخبرني بهذا وإنني أنتظر وأمنى نفس بهذا رغم إنني كنت رافضة العمل خارج مصر بل خارج المحافظة لأنني أعشق الاستقرار والهدوء.

بعد مُضى عشرة أيام وصل تلغراف لأبى من صديقه يخبره فيه بقبول أوراقي وأن المدرسة التى قبلت أوراقي بها سوف ترسل لي بصورة العقد وتأشيرة السفر والإقامة وتذكرة السفر .. تمت كل الإجراءات بسرعة واستخرجت جواز سفر وبعد شهر وجدت نفسي فى الكويت أعمل بمدرسة خاصة مع العديد من السيدات اللائي يعملن وهن من بعض الدول العربية.

أقمنا فى سكن خاص به كل الإمكانيات الإدارية التى تساعد على المعيشة. لم يكن هناك شيء يزعجني سوى بُعدى عن والدي وعدم زيارة قبر امى مثلما كنت أفعل قبل السفر.

أقمت صداقات مع بعض المدرسات القريبات منى عمراً وفكرا وكنا نقطع أيام الغربة القاسية بتلك العلاقة التى يدور محورها حول الكفاح والجَد وذكريات مصر الجميلة بحلوها ولم نكن قد شعرنا بمرها بعد لصغر أعمارنا التي لم تسمح لنا بتحمل اى مسئولية.

كانت أسرة صديق والدي تتابعني عن بُعد عن طريق الاتصالات التليفونية وعن قرب عن طريق اللقاءات فى منزلهم الجميل والذى لا يبعد عن سكنى القريب من المدرسة إلا بحوالي عشرين دقيقة بالسيارة.

مضى علىّ أكثر من ستة أشهر ولم يتبق على نهاية هذا العام الدراسي سوي شهرين. حدثتني زوجة صديق أبى قائلة: ابنتي عنايات امامى عريس يناسبك وهو شاب مكافح ومن عائلة طيبة من أبناء الإسكندرية وقد شاهدك فى إحدى المرات التى كنتِ تسيرين فيها معي نتجول فى سوق المدينة وقد أعجب بك وسأل عنك زوجي محمود وقد أفاض محمود فى أخلاقك وسيرتك الطيبة أنتِ ووالدك غريب أفندى ثم عاد ثانية وفاتحه فى أمر التقدم إليك وقد كلفني محمود بأن أخبرك وأعلم رأيك فى هذا الأمر؟

طالبتها بأن تؤجل هذا حتى نهاية العام الدراسي فنحن فى الغربة لا نستطيع أن نبدى رأيا سليما نظرا لظروفنا وتوتر أعصابنا بسبب الاغتراب واختلاف الطقس والعادات ولكن فى مصر يعود الإنسان إلى وضعه الطبيعي ويتشبع بأهله وأسرته ويصبح حسن التفكير مركز الذهن وبالتالي تصبح قراراته أقرب إلى الصواب.

وافقتني السيدة النبيلة , وفى اللقاء التالي اخبرتنى بأن زوجها أبلغ الشاب الراغب بالتقدم لي برأيها وقد تفهم الموقف وأنه سوف يقوم بزيارة لمنزلهم فى قريتهم ثم يتجها لزيارة منزلنا ولقاء والدي .. أشرت إليها بحسن التفكير وانني أوافق على هذا وأمامنا فى مصر الأجازة الصيفية التي تتعدى الشهرين.

عدت إلى قريتنا وإستقبلنى أبى وشقيقاتي بكل الحب التي كنت افتقده وكنت فى شوق إليهم. بعد مُضى أسبوع من عودتي تغير كل شيء بزيارة قامت بها صديقة شقيقتي الكبرى .. إنها "إخلاص" والتى أعلم منذ عامين

أنها ُطلقت من زوجها بسبب حماقتها وسوء تصرفها مع أهله رغم أنها تتمتع بمسحة كبيرة من الجمال ويُسر في المال. ُطلقت ومعها طفلان أعمارهما الثالثة عشر والعاشرة .. ُكنت أندهش لتلك العلاقة والتى كانت هامشية فى السابق حيث لم تكن تعيرنا اي اهتمام.

اندهشت من تلك الزيارة وسألت شقيقتي الكبرى والتى اخبرتنى وهى مترددة بأن والدي راغب في الزواج منها .. تحطم كل شيء ُمبهج وحسن فى الحياة ولم أعد أرى شيئا إلا الـُكره والبعد عن الناس , فهذا أبى الحبيب والذى أعتبره كل شيء فى حياتي ولا يجب أن يشاركني فيه أحد حتى شقيقاتي إلا بالقليل من الاهتمام لكن أنا كل شيء أمامه , فهو الأمان ومورد عزى وسعادتي , سوف ينهار كل هذا بزواجه من أخرى فيبتعد عنى وأبتعد عنه ولا نتلاقى إلا لقاء الغرباء ويمضى كل منا الى غايته ولا يجب لحظتها ان نقول أن الحظ شاء ولكن نقول نحن الذين شئنا ولم يكن قضاءً وقدراً بل كان قرار وقدر ولم يكرهنا عليه أحد.

أرسل عمى محمود صديق والدي يخبرنا بأنه قادم لزيارتنا وبصحبته أحد الشباب الذي تعرف عليهم بالكويت. أنتظرهما والدي وأنا مضطربة وعلى غير حالتى واتزاني فما سمعته من نية أبى قد قلب عقلي وفكري والذى أصبح هرماً وغير قادراً على النصح والتدبر.

فى الموعد حضر عمى محمود وبرفقته صديقه الشاب , استقبلتهم حيث كان أبى مشغولا بصلاة العصر , رحبت بهما وهنا أشار عم محمود إلى مرافقه قائلا: الأستاذ يسرى المحاسب صديق الأسرة بالكويت , أعدت

الترحيب وحضر والدي مرحبا بهما بينما اتجهت إلى المطبخ لأعد لهما مشروبا مثلجا يلطف عليهما درجة الحرارة المرتفعة.

لم يكن الشاب منفراً كما اعتقدت , بل استرحت له سواء لعنايته بشكله وملابسه أو لأسلوبه فى الحديث الذي يشعرك بأنك على معرفة وعلاقة به منذ فترة. أعددت لهما شراب الليمون المثلج واتجهت لهما وهم جلوس فى المنطقة الأمامية التى أمام المنزل والتى تغطيها ظلال شجرة اللبخ جميلة الرائحة بعيداً عن ضوء وحرارة الشمس مع هبوب بعض نسمات ناعمة تقبل نحوهم.

جلس الضيفان وقد استمرت جلستهما حوالي الساعة غادرا المنزل وعاد إلى أبى بابتسامته الجميلة التى سوف تنازعني فيها سيدة أخرى فبادرني بالحديث بقوله: إن الشاب 'يسرى الذي كان برفقة عمك محمود عرض علىّ رغبته بالزواج منك وقد أخبرني محمود بأنكِ تعلمين هذا وأجلت كل شيء لحين العودة إلى مصر وها أنا أسألك عن رأيك فيما يطلبه 'يسرى. هل توافقين أو ترفضين وما تقررينه سوف يكون.

نظرت إليه متسائلة: أبى لقد علمت بأنك راغب فى الزواج من إخلاص صديقة أختي "محاسن" هل هذا صحيح؟

أطرق أبى برأسه ونظر أرضا ثم حدثني بهدوئه المعهود بعد أن جلس على الكنبة البلدي وأجلسني بجواره يحتضنني كسابق عهده وأنا صغيرة بأن يقبل على ينفحني من حبه وحنانه: نعم إبنتى العزيزة هذا ما قررته ولكنني انتظرت قدومك لأحصل على إذنك!!

ابتعدت عنه قليلاً حتى أشاهد ملامح وجهه الطيبة وشعرت بأن عيناه لامعة من أثر دموع تكاد تنزلق من مآقيه. قبلت يده متسائلة: أبى: أيحق للابن أو الابنة أن تمانع فى زواج أبيها أو أمها؟

لا يحق يا ابنتي. ولكن لماذا نحصل على حق لنا وقد كبرنا دون الحصول علي إذن ورغبة الأبناء والبنات. أنا لم أفكر فى الزواج بعد أمك رحمها الله فمن يعوضني خمسة وثلاثين عاما بدأت ونحن شباب يافع والتحمت نفوسنا وأجسادنا بعضها ببعض وكبرنا سويا نتعارك ونتخاصم ونحب بعضنا بعضا لا يغادرنا ضياء النهار إلا ونحن أحباب وسعداء ولكن القدر صعب على كبار السن وجحود الآخرين أشد صعوبة وبعد أن كان منزلنا ممتلئا حيوية بك وبشقيقاتك وأمك والخادمة وأنا والشباب من حولنا أصبحت بمفردي يتيما فى الستين من عمرى أفقد الذاكرة رويداً رويداً وتضيق على حجرتي كل يوم شبراً شبراً حتى تكاد تغلق على رحمة ربنا وتصبح قبرا لي وأنا مازلت حياً أرزق. الوحدة قاتلة وإعداد الطعام وغسل الملابس وكل لوازم المنزل والصحة لم تعد كما كانت فقد أصبحت مثل عود الخشب الذي يحمل سقف المنزل ولكنه أصبح هرماً ونسمع أصوات طقطقة العجز من نخر سوس الخشب به وسوف يسقط فى لحظة ما ولقد حاولت شقيقاتك عوني ولكن الإنسان أصبح ثقيلاً وقد جاءني مرسال من أحد أزواجهن بأنى سوف أتسبب فى مشاكل لهن مع أزواجهن لأنهن يتركن منازلهن فترات لمعاونتي.

أحادثه .. أبى .. أهزه برفق .. أرجوك أبى لا تدمع وتعكر صفاء عينيك الجميلة ولا تتأثر مما حدث سوف أظل بجوارك أخدمك وأقوم على رعايتك

ولن تحتاج أحداً والله سوف يساعدك ولا يجب على أن أتركك بعد أن كبرت وأصبحت فى أشد الحاجة والعون.

- أشكرك ابنتي

- أبى , لا تقبل يدى ولا تزيد من حزني ..

- أبداً حبيبتي الصغيرة ,, إنني أقبل يدك الصغيرة حبا فيك وفى أمك الجميلة التى وهبتني وهبة الله إليها بأن وضعتك لأجدك بجواري تشدني من أزرى وترفعي من نفسي الحزينة.

- أبى , سوف أرسل إليهم بخطاب استقالة وأظل بجوارك .. أبى لا تعيد تقبيل يدى , بل أنا الذي أقبل يديك الكريمة , أرجوك قلبي يبكى لبكائك وأنا أشعر بك ولا تحزن من إخوتي فهن راغبات فى خدمتك ولكن سيف الزوج القاهر مسلط على رقابهن ولولا وجود أطفال لديهن لتركن الزوج القاسي.

- حبيبتي الصغيرة.. أنا لست غاضباً من شقيقاتك فهن على خلق مثلك وقلوبهن رقيقة المشاعر وهن بررة بالأب الحزين ولكن مصلحتهن أهم عندي من اى شيء آخر , أسمعيها منى خالصة. لقد أقترب حصادي وسوف أزف مع الآلاف غيري إلى السماء حينما يحين أجل هذا الحصاد , لكن أنتِ برعم صغير فى بدايته ولكِ كل الحق في أن تحيى كما تحيا البنات فى عمرك وكما يقول المثل بعد العيد ما "يتفتلشي" الكعك وأنت كعك جاهز وعيدك أقبل فأنتهزى الفرصة للاحتفال بليلة العيد التى نتمنى أن تؤنسنا

- أشعر من حديثك هذا بأنك موافق على زواجي من يُسرى.

ـ نعم حبيبتي الصغيرة إذا لم يكن هناك مانع أو أنك كارهة له ولكن إذا شعرتِ بأنه إنسان مريح النظرة وبعد أن تستفتى قلبك فإتكلى على الله الذي لا ينسى عباده حتى إذا قابلت ربى يوم أن يأتى حصادي فأصبح سعيداً بأننى قد اطمأننت عليك , أما عن إخلاص فهناك مصلحة مشتركة بدون أن تخبرني بها وبدون أن أخبرها , فهى راغبة فى زوج يسترها ويحميها وتنام ملء عينيها ليلاً وتقترض أباً لأبنائها وأنا بالأحرى راغب فى زوجة تملأ على المنزل وترعاني وتحافظ على وحينما يأتِ وقت الجد تخبر الناس عنى بدلا من أقابل ربى ولا يعلم أحد بأننى سافرت للجهة الأخرى وهم نيام فى مسعاهم نحو الطعام والشراب الذي سرق الناس من أعمارهم وتركهم يدورون حول أنفسهم ليفاجئوا بموعد الحصاد وهم فى دهشة كيف مرت الأعوام سريعة هكذا.

ـ أبى . أتعمل لمصلحتي ولا تعمل لمصلحتك؟

ـ من قال هذا؟ فأنا أعمل لمصلحتي , فزواجك واستقرارك هو مصلحتي الأولى , ثقي إبنتى أن اى أب يسعده اليوم الذي يعثر فيه على شاب يستحق حسن ابنته وتربيتها وخُلقها الذى ظل هو وأمها طوال عمرها الصغير فى مراعاتها والمحافظة عليها ليسلمها له درة ثمينة تملأ عليه حياته سعادة وهناء , هذه هى سعادتي ولهذا فأنا أبحث عن مصلحتي.

*****

نامت على صدره وعادت الى حياتها السابقة بعد أن شعرت بالأمان بجواره فغلبها النوم وهى متأكدة بأن تلك اللحظة من أسعد لحظات حياتها وهى تضع رأسها وأذنها فتسمع خفقان قلبه.

كانت تلك الأمسية حجر الزاوية فى قرارين تم اتخاذهما: الأول موافقتها على زواج أبيها من أخلاص صديقة شقيقتها والثاني موافقتها على الارتباط بهذا الشاب المحاسب يُسرى والذى يعمل فى دولة الكويت منذ ما يزيد عن الأعوام الخمسة.

تم كل شيء بسرعة والفرحة تغطى أرجاء المنزل الذي سُمع به صراخ وعويل فقد الأم فى العام الماضي فى نفس هذا التوقيت.

عاد كلٌ من يسرى وعنايات إلى الكويت زوجين سعيدين والفتاة من جانبها أطمأنت على الأب الذي شعرت بوهن صحته ورغبته لفراق الدنيا مما ألم به.

فجأة حدث توتر غير متوقع من الجهة الأمنية الموكل إليها حفظ النظام بالوطن وهى أحداث الأمن المركزي وعلى أثره نزل الجيش إلى العاصمة لإعادة الأمور إلى نصابها ونجح فى هذا فقد خشيت جموع الغوغاء من أن يعتقلهم الجيش فآثروا السلامة.

شعرت "عنايات" بالخوف على والدها ورغبت فى العودة إلى مصر ولكن زوجها أقنعها بالبقاء وإذا لم تتصلح الأحوال فسوف يرافقها للاطمئنان على عمه "غريب" , جاءت الأخبار تباعا باستقرار الأمر ولم يكن قد مر على زواجهما سوى أشهر قليلة لكنها كانت فى منتهى الأهمية فى بداية حياة "عنايات" فلقد أقنعها يسرى بعدم الإنجاب حاليا قائلاً لها: ولنؤخره ثلاث أو أربع سنوات حتى ننتهي من عملنا بالكويت ونعود مصر ثم نبدأ فى الإنجاب لأنه لو تم الحمل حاليا فسوف يسبب لك مشاكل فى العمل مع ارتفاع درجة الحرارة.

وافقته على رغبته هذه مقتنعة بما ساقه من مبررات كانت تصب فى صالحها وهى صغيرة ولم تكمل عامها الثالث والعشرين فإذا تأخرت فى الإنجاب أربع سنوات فلن تتأثر بها فالعديد من الزوجات الصغيرات فى مصر يتأخر إنجابهن لظروف صحية فما المانع من أن تأخير الحمل والإنجاب.

*****

شعر "عمر" بطعنة قوية من أصدقائه الأربعة ومن أجل هذا توجه للعديد من سماسرة الأراضي لعرض أرضه للبيع على الراغبين وأستمر هذا الحال حتى قارب العام ولم يعثروا له على مشتر مناسب والذى كان راغباً في الشراء عرض ربع ثمن ما دفعه لأنها غير مشجعة فمن يشترى جبلاً من الرمال مرتفعا وإصلاحه يحتاج أموالاً وجهداً كبيراً وقد واساه السمسارة على حظه السيء.

سلم أمره لله , فلم يعد فى جعبته اى شيء يفعله ولقد سلك كل الطرق دون جدوى وقرر بداخله أن يستعوض هذا المبلغ راجيا من الله أن يعوضه خيراً عنه.

كان "عمر" دائم السفر بتلك المنطقة حاملاً منتجات زراعية للأسواق أو مواد زراعية لبعض الأراضي هناك , كان يشاهد زملاءه وأراضيهم قد غطتها الزراعات الخضراء والعمال يعملون بها بينما قطعته هامدة كأنها جثة تحللت.

شعر بالألم لهذا وبأن البعض قد استحلوا أكل إخوتهم أحياء كما ذكر رب العزة فى كتابه الكريم. وطن نفسه على ألا يغضب أو يفكر فيهم بطريقة ضارة وما هم فاعلون أمام قدرة الله.

أثناء سيره عائداً من مهمة عمل راغباً فى اللحاق بمسجد صغير يقع على الجهة الأخرى من الطريق الذي تقع قطعة أرضه عليها ومواجها لها شاهد سيارة مرسيدس تقف على جانب الطريق وقد وقف بجوارها رجلٌ فى

العقد الخامس من عمره يرتدي جلباب بلدي ويشير إليه بالتوقف .. توقف "عمر" فأقبل الرجل عليه يحادثه:

ـ ممكن توصلني لأقرب ورشة ميكانيكي؟

ـ النهاردة الجمعة والكل راحة .. خير .. فيه إيه؟

ـ أبداً. العربية وقفت مني ومش عايزه تدور

غادر عمر سيارته وأتجه إلى السيارة المرسيدس ليرفع غطاء الموتور .. أستوقفه الرجل:

ـ حتعمل إيه؟

ـ حاشوفلك العربية فيها إيه؟

ـ بلاش ونخلي واحد بيفهم فيها أحسن , النوع ده غالي

ـ أنا عارف وأنا ح أشوف ممكن أساعدك أو لازم أشوف واحد متخصص يمكن حاجه بسيطة.

رضخ الرجل بضيق . شاهد "عمر" الموتور ونظر إلى الرجل قائلاً: دي حاجه بسيطة . أتجه إلى لفافة مشمع بها عدد ومفاتيح وأدوات ميكانيكا حيث كان يضعها خلف الكنبة التي يجلس عليها بسيارته.

ضغط "ببنسة" معه ثم نظر إلى الرجل قائلاً: دور يا حاج. دخل الرجل إلى السيارة وأعمل مفتاح التشغيل فدارت السيارة مما أسعده وأثنى على عمله. وضع يده في جيبه وناوله مبلغاً من المال , نظر عمر إليه متسائلاً: إيه ده؟

ـ حق شغلك

ـ شكراً. وأعاد إليه نقوده

- ده مبلغ كبير. أنت مستشوى المبلغ؟

- متقلشى كده , هو أنا عملت حاجه؟ روح يا راجل ربنا يسترها معاك , مش معقول الزمن ده كل حاجه بالتمن

شكره الرجل على مروءته وقاد سيارته تاركا المكان.

قاد "عمر" سيارته فى نفس اتجاه تحرك راكب المرسيدس. بعد عدة كيلومترات وأمام قطعة الأرض التى يمتلكها "عمر" توقف الرجل بسيارته فأعتقد "عمر" بأن عطلاً قد حدث بالسيارة أو أن الرجل يرغب فى أداء صلاة الجمعة. توقف عمر خلفه متسائلاً:

- مالها العربية؟

- أبدا كويسه بس أنا وقفت أشوف الحتة هنا

- طيب تعالى نصلى الجمعة لأن المؤذن سامعه بيأذن

- أتفضل أنت انا مش ح أصلى!

توجه الرجل إلى قطعة الأرض وسار فى رمالها متجها إلى الجهة الأخرى بينما أتجه "عمر" إلى المسجد لأداء الصلاة.

أنهى "عمر" صلاته وغادر المسجد فشاهد الرجل مازال واقفاً بأرضه فأتجه إليه متسائلاً:

- باين عليك عايز تشترى الأرض؟بدهشة.

- أشترى الأرض!! مش معقول!! أنا معنديش فلوس تكفيها , دي تمنها غالى , دا إذا صاحبها وافق على بيعها.

- للدرجة دي! غالية إزاي؟ دا أرض خرابه وكلها رمل , ضاحكاً:

ـ خرابه إزاي يا أسطى؟ دي كلها دهب! بس أنت ملكش فى ألكار.

ـ دهب!! ياه , يعنى منجم وتطلعوا منه دهب؟

ـ لا .. مش منجم لكن رمل , بأقول رمل , الرمل غالى

ـ إزاي الرمل غالى؟ ماهو الرمل مالي الصحرا حوالينا

ـ رمل المباني والصبة الخرسانية غير الرمل اللى أنت بتشوفه , رمل خشن هوه ده المطلوب. تعرف أن الشرقية والمنصورة ودمياط وبورسعيد معدش عندهم رمل من النوع ده وأنا وبعض رجالتي بندور على رمل من بتاع ألبنا. أنا خدتك فى الكلام. أعرفك بنفسي: المقدس مكرم ميشيل من المنصورة.

ـ أهلا بيك

ـ عمر حمدي .. باشتغل على العربية وكنت قبلها مهندس ميكانيكا فى مصنع أسمنت حلوان وبعد البيع استغنوا عنى وعن بعض الزملا قمت عملت المشروع بتاع النص نقل.

ـ عملت طيب , مافيش أحسن من الشغل الحر.

ـ طيب أسيبك دلوقتى يا مقدس

ـ طيب ممكن تعمل لي خدمة؟

ـ أوى. خير؟

ـ عايزك تشوف لي صاحب الأرض دية وإذا كان يوافق أنى أدخل معاه شريك فى الأرض لرفع الرمل "محجر رمل"

ـ وده ح يكسب منه؟

- يكسب منه !! بتقول إيه ؟ ده كل يوم مش حيقل دخله عن خمسمية جنيه!!!

- خمسمية جنيه .. ياه!!

- ولك الحلاوة وأدى الكارت بتاعي , كلمني فى التليفون أو سيب لي خبر ونتفق ونيجى نقابله

- حاضر يا مقدس.

أفترق الرجلين كل إلى غايته وفكره وحلمه. المقدس يُمنى نفسه بأن هذا الشاب إذا وُفق فى لقاء صاحب الأرض وإقناعه بمشاركته فى محجر الرمل سوف يُصبح من السعداء والأغنياء نظراً لأنه من أكبر تجار مواد البناء وأصبحت تجارته راكدة لعدم وجود عنصر هام وهو الرمل ولذلك فالأسمنت والزلط والحديد والظوب مكدس فى المخازن لعدم وجود الرمال.

كان "عمر" يقود سيارته النص نقل ويتوقف كل عدة دقائق ليقل بعض الفلاحين فى الطريق , فهذا يدفع ربع جنيه وآخر يدفع خمسين قرشا وثالث يرغب فى تحميل ماعز بأولادها ويطلب مساعدته برفعهم معه وهكذا وكاد أن يرتكب حادثاً وهو يفكر فيما عرضه عليه المقدس مكرم ميشيل , بعد أن غادر زبائنه السيارة عطف علي جانب الطريق وأسفل شجرة صفصاف تتدلى على ترعة جلس بظلها يستعيد حديث الرجل.(ده محجر رمل .. دهب .. سامعنى دهب .. ممكن يصفى كل يوم خمسمية جنيه ومش ح يدفع حاجه , كل المطلوب منه الأرض وبس).

توقف بالطريق حيث كمائن الشرطة تتفحص هوية السائقين نظراً للأحداث التى تجرى فى العاصمة من ثورة جنود الأمن المركزي. ظل

محاصراً بالطريق عدة ساعات ولفيف من السيارات من مختلف الأنواع حتى سُمح لهم بالتحرك. عاد إلى حجرته المتواضعة غير قادر على النوم أو اليقظة فما أخبره به الرجل رفعه لأعلي السماء ولحظات يتذكر كذب بعض المصريين وأنهم دائماً ما ينطبق عنهم القول "أسمع كلامك أصدقك أشوف أمورك أستعجب" فقد يكون ممن نسمعهم يجيدون حلو الحديث. "يُحدث نفسه" على كل حال الأرض مش حتحمض وخليها فى مكانها.

بعد عدة أيام وأثناء إعادته لأوراقه بعد توقيف رجال المرور له شاهد كارت المقدس مكرم فتذكر حديثهما وقرر محادثته , أتجه إلى أول تليفون شاهده وحادث الرجل الذي أسكرته الفرحة بأن عثر على صاحب الأرض ووافق على اقتراح المقدس وقد شكرَه المقدس مخبرا إياه بأن حلاوته "الإكرامية" محفوظة لديه واتفقا على موعداً للقاء بالأرض.

كان "عمر" ينتظر هذا الموعد ليسمع كل شيء راغباً فى التأكد من أن حديث الرجل صادق , فى الموعد حضر المقدس وبعد أن صافح "عمر" تساءل:

- تفتكر صاحب الأرض حيحضر فى ميعاده وإلا زى عوايد الكل أللخبطة فى المواعيد؟ إبتسم "عمر" قائلاً:

- سيدي المقدس , صاحب الأرض يحادثك الآن.

دُهش الرجل وأعتقد أن "عمر" يمزح معه ولكن عمراً أكد له أنه صاحب الأرض , هتف الرجل لسعادته بأن يصبح هذا الشاب المهذب الذي ساعده وأصلح له سيارته دون مقابل أن يكون شريكه.

اتجها الى الجانب الآخر من الطريق وافترشا الأرض أسفل شجرة كافور وفى ظلها عرض الرجل عليه خطته قائلاً:

- أنت حتدخل بالأرض وأنا بالمعدات. يعنى حأوفر "لودر" وده تمنه لا يقل عن ربع مليون جنيه وطلمبة ميه وأبنى حجرة للخفر وكل يوم مش حيقل عدد اللوارى عن عشرين لورى بالمقطورة. اللوري يدفع تمن الرمل عشرين جنيه والمقطورة زيهم. يبقى اللوري بالمقطورة أربعين جنيه فى عشرين نقفل تمن ميه جنيه نقفل حساباتنا نهاية كل أسبوع وعلشان تكون مستأمني وفر نفر من عندك يجمع الفلوس وأجره بالنص بينا. اتفقا الطرفان على ذلك.

لم يمضى أسبوع إلا وقد أحضر المقدس اللودر وانتهى العمال من بناء الحجرة وتم دق الطلمبة وعبدوا طريقا للداخل بالتربة الحمراء حتى تتحمل أوزان اللوارى الثقيلة ولا تنغرس بالرمال , أصبح المكان بعد عدة أسابيع شعلة من الحركة والنشاط وزاد عليها توفير مولد كهربائي ليلاً وإقامة "قهوة" صغيرة لتلبية احتياجات السائقين من شاي وتدخين المعسل.

بعدُ مضى شهر شعر "عمر" بالعز وقد وصل دخله خلال الشهر الأول ما يقارب العشرين ألف جنيه صافيا. شعر بأن الله عوضه عن صبره جزاء الخير الذي يقوم به مع الناس وجزاء صبره على بلائه من الآخرين.

اقبل أصدقاؤه الأربعة إليه ذات مرة مرحبين به متسائلين: هل باع الأرض أو ماذا حدث لها؟ أجابهم بصريح القول حيث أنهم قاموا بالسؤال عما يحدث بها قبل الحضور إليه حيث شاهد القلق باديا فى أعينهم.

*****

مضى عام وقد وصل نصيب "عمر" إلى ما يزيد عن نصف مليون جنيه حيث علم المقاولون بالمحافظات الأخرى بخبر منجم الرمل ولهذا وصلت مستحقاته الشهرية إلى ما يزيد عن الأربعون ألف جنيه فقد تضاعف دخله عن الأشهر الأولى.

كان المقدس مكرم رجلا مسالماً ولم يفكر فى خيانة الرجل الذي أحضره عمر لجمع أثمان بيع الرمال المنقولة من الأرض وسارت الأمور بينهما تيمنا بقول الله عز وجل فى حديثه القدسي"أنا ثالث الشريكين إذا أخلصا"

أمتنع "عمر"عن العمل الشاق وركز علي عمله فى المحجر مما أسعد المقدس مكرم بأن يجد شريكه ملازما الشركة.

فى العام التالي زاد الدخل عن النصف مليون قليلاً ولكن مازال جبل الرمل ضخما ولم يتأثر بكل الإزالة التى تمت وكأنه محيط من الرمل سواء لارتفاعه الضخم أو لمساحته الكبيرة , فقد تعدت الأفدنة الستة وبالتالي اقتربت مساحة قاعدته من أربع وعشرين ألف متر.

الأرض المقابلة لأرض "عمر" والتى بها المسجد عرضها ورثتها للبيع بعد وفاة الأب , فقد زهد أبناءه الموظفين فى تحمل تبعاتها ولهذا عرضوها للبيع وكانت مساحتها تقترب من الستين فدانا نصفها أشجار موالح وليمون مثمر والباقي أرضاً زراعية للمحاصيل الغذائية من قمح وذرة.

وصل الثمن الذي طلب فيها الى ما يقرب من واحد ونصف مليون جنيه ولهذا لم يعثروا على المشترين لارتفاع سعرها وأخيراً تقدم "عمر" بعد أن

خفضوا ثمنها إلى واحد وربع مليون جنيه دفع من ثمنها مليون جنيه فوراً ومائتي ألف وخمسون ألفا بعد شهر حتى يعوده العائد الشهري.

أصبح "عمر" يمتلك ستين فدانا منزرعة منذ عدة أعوام وأرضها خصبة وبها استراحة كبيرة وبها بعض المخازن والمعدات ، فى العام التالي اشتري "عمر" سيارة مرسيدس مشابهة لسيارة المقدس "مكرم ميشيل" لكن أحدث منها.

لقد تغيرت الأحوال والظروف وقد مكر الله على أصدقائه حيث يقول رب العزة فى كتابه الكريم:

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ..

صدق الله العظيم

اضطربت الأمور مع أصدقاء "عمر" الأربعة خاصة أنهم لا يملكون خبرة فى مجال الزراعة. بل وصل الأمر بأراضيهم أن أرتفع بها منسوب المياه الجوفية "طبلت" وبالتالي أصبحت غير صالحة للزراعة إلا بعد علاج السبب الذي أدي إلي ارتفاع منسوب المياه بها وقد أيقنوا أنهم خانوا الصديق الوفي ولهذا كافأه الله وجازاهم بما يستحقون.

أعطني حريتي أطلق يديَ

مضى على شراكة كلّ من المقدس مكرم ميشيل و"عمر حمدي" أربعة أعوام قارب جبل الرمل أن يتساوى مع الأرض المحيطة به وقد من الله عليهما بالخير وكان دائما ما ينفح المقدس شريكة بعبارات الثناء والشكر معيداً قوله "وشك وش السعد عليّ" وهكذا قاربت الشراكة على الانتهاء وقد أصبحت عزبة "حمدي" ملكاً خاصا له وأطلق اسم المرحوم والده عليها تقديرا له بعد مماته عزبة "حمدي النمر".

بلغ ما حصل عليه "عمر" من منجم الرمل هذا ما يربو على الأربعة ملايين جنيه ولهذا تفنن فى إضافة بعض الأنشطة الى عزبته وخاصةٍ تسمين العجول وإدرار اللبن الذي من الله عليه بعائد مجز وكان دائم التذكر بقول الحق "أحلت لكم بهيمة الأنعام" ولهذا توسع فى هذا النشاط مستنداً إلى الخبرات وأصحابها وليس اندفاعا أهوجاً وكان المثل والقدوة أمامه المقدس مكرم والذى أخرج الذهب من بين تلال الرمال ولو لم يكن قد عثر على شخص مثله لكانت تلك الرمال أهملت وتكلف إصلاح الأرض آلاف الجنيهات دون عائد ولكن الخبرة لها العامل الحاسم فى الاستثمار والاقتصاد.

جاءه أصدقاءه وهم يجرون خلفهم أذيال الخزي والعار من سوء تصرفهم , رحب بقدومهم واستمع إلى شكواهم وفى نهايتها رجوه أن يشترى أرضهم

بالسعر الذي يناسبه وهم موافقون لأنهم أصبحوا غير قادرين على الاستمرار فى الإنفاق عليها فقد تبخرت كل مدخراتهم.

أجابهم بهدوئه المعهود , أصدقائي: لن أبتاع أرضكم بثمن بخس وأصبح مذنبا فى حق الله وحق نفسي حيث يقول الله تعالي "ولا تبخسوا الناس أشياءهم" صدق الله العظيم. ولكنى سوف أعرض عليكم عرضا أرجو أن ينال رضاكم. احتفظوا بأرضكم وأنا سأتولى دفعها للأمام باستغلالها أحسن استغلال وكما أرسل الله لي بإنسان لم أكن اعرفه لكى يقف معي فأنا أعرفكم وسوف أقف مساندا لكم. أصدقائي سوف نقوم بعمل كل شيء مثلما فعلت بأرضي وسوف نحولها إلى الإنتاج الحيواني وأنتم تعلمون بهيمة الأنعام والتى كلها فوائد حتى روثها مخصب طبيعي للأرض. سيقول أحدكم ليس معنا سيولة مادية وأنا أخبركم بأن السيولة معي ولهذا سوف استأجر أرضكم وأحولها إلى مرعى كبير للأبقار والمواشي وناتج الإيجار يخصم ثمنا مما أضفته إلى أرضكم وتعودون بعد خمس سنوات وقد أصبحت أرض كل واحد فيكم مرعى للبهائم وبها عدد من رؤوس الأبقار. فكروا وأنا رهن إشارتكم وإذا رغبتم فى الحصول على الإيجار نقدا دون الحصول على قطيع الأبقار فأنا مستعد لهذا.

غادره الأصدقاء وهم فى أحسن الأحوال حيث عرض عليهم عرضين كل عرض فيهم قابلا للتنفيذ ويتماشى مع رغباتهم وأخيرا وافقوا على العرض الأول فانتظار خمس سنوات تعود إليهم أرضهم خصبة وبقطيع من الأبقار لكل قطعة عشرة رؤوس فهذا رائع ومكسب كبير لهم بالإضافة إلى

انه وافق على ان يتواجدوا بأرضهم للحصول على الخبرة حتى يستمروا فيما قام به كلٌ معتمد على نفسه بعد حصوله على تلك الخبرة.

أعد اتفاق بينهم علي يد محامى وردت به كل بنود اتفقوا عليها, بعدها أصبح نشاط "عمر" يشمل مائة فدان, ستين ملكا له وأربعين إيجار من أصدقائه. سرت الفرحة بينهم بعدُ مضى أشهر قليلة لما أصبحت عليه أرضهم ولهذا أوسعوه شكراً وامتنانا لأنه كان فى مقدوره شراء أرضهم ولكنه لم يرغب فى أن يحرمهم منها كما حرمتهم حكومتهم من وظائفهم ، التى استمروا فى الدراسة حتى وصل عمر كل شاب خمسة والعشرين عاما من أجل الحصول على تلك الوظيفة ولكن فى لحظة طردوا من أعمالهم وهو الذي اختبر هذا قبلهم فعليه أن يكون مسانداً لهم وإلا أصبح مستغلاً لأن استغلال صاحب الحاجة هو أشدُ ظلما عند الله. هكذا جرت الأيام تلّي الأيام ومن نجاح إلى نجاح.

*****

فى الكويت وفى العام التالي لزواج "عنايات من يُسرى" بدأت تشعر الزوجة الصغيرة بإهمالة وببروده تجاهها وبدأ تفكيرها يصحو على استفسارات تأتى إليها سواء من شقيقاتها بمصر عن طريق الخطابات أو من زميلات العمل أو من السيدة "سلمى" زوجة صديق والدها الأستاذ محمود الذي يعمل فى الكويت. تدور كل تلك الأسئلة حول نقطة واحدة: لماذا تأخر الحمل؟

فى البداية كانت تجيب بأنها هى التى طلبت هذا من زوجها ولكن بعد أن تعاظمت عليها الأسئلة وأصبحت شبه اتهام لها بأنها تضيع عمرها هباء دون إنجاب موضحين انه عندما ترغبين فيه قد يُصبح توقيته قد ولى وتقدم العمر وتقاسين الكثير من شدة الآلام.

استعادت أسباب مشكلتها والتى تنحصر فى معاملة زوجها لها والمتذبذبة والمغايرة لما بدأ علية حياته كما أضافت بعداً آخراً لا يعلم الآخرون اى شيء عنه , استيلائه على كل دخلها من عملها بحجة أنه يدخره لها لحين العودة إلى مصر وشراء شقة فاخرة يُعدانها كعُش يعيشان به , صدقته القول فى البداية ولكنها بدأت تشعر بعدم الأمان حياله خاصة محاولة إذلالها والاعتداء عليها سباً وضربا , فى احدى الأمسيات الباردة نفسيا "وعاطفيا" نظرت فى المرآة وهى جالسة فوق سريرها وأمامها التسريحة لا يفصلها عنها سوى مترين حدثت نفسها بصوت خافت هامد:

إن مشكلتي مع هذا الرجل والذى تزوجني وأنا نبتة يانعة لم تقطف ولم يقترب مني أحد ويعاملني بتلك القسوة التى لا مبرر لها سوى الغيرة الحمقاء وحُب التملك لمن هم من أمثاله ممن لم يتربى على قيم الفضيلة والكرم , فهو إنسان لم يشبع على مائدة الطعام فى منزله ولهذا فهو دائما جوعان.

مازالت تحدث نفسها بعد يوم عاصف من الإهانة والتحقير والإذلال:

سأظل جالسة على سريري وأشاهد نفسي فى المرآة المقابلة من الجانب الآخر , أشعر فى بعض الأحيان بأني أهذي بدون صوت ولكن بحركات تشنجية ثم شعرت بأن فكرى ترك رأسي خاوية وهرب منها وقفز

على الحائط المواجه لي مباشرة أعلى المرآة. ما زال فكرى فى موضعه ينظر إلى هذا الجسد الجميل وتلك المفاتن الرائعة التى منحنى إياه الله.

ظللت جالسة لا ألوى على شيء , تعيد كلماتها الحزينة. أنا جسد بدون فكر وكيف التصرف؟ وكأن فكرى حزن على حالي فعاد أدراجه قافزاً الى داخل رأسي ليكتمل عقلي , شعرت به وأن العقل أنضم إلى الجسد الذي كان بلا روح وقيمة بدونه رغم جمالي الفاتن.

أفكر فى هذا الزوج القاسي المادي. لقد استلب واستحل شبابي وأموالي وجزءًا من عمرى فى أبهي مراحله , هل أظل هكذا؟ ولكن كيف؟ أضرب على رأسي صارخة. أيها الفكر تحرك وأعثر لي على منفذ ومخرج حتى تنقذني مما أنا فيه , فأنا لست حيواناً أليفاً يسحبه صاحبه ليتلذذ بتعذيبه أو يجره خلفه ليقف به أمام الناس فى أحد الشوارع الجانبية ُيسلى به القوم السائرون ويحصل بعدها على بعض النقود فيعود إلى حبسي ويتجه هو إلى ملذاته والغرق فى أحضان الخليلات سابحاً فى كؤوس الهوى والخمر , آه عليك يا عنايات!! لقد كان جمالك نقمة عليك ولم يعد الجمال نفعاً لصاحبته.

انكفأت على وجهها باكية حزينة لما ألم بها وبحالها. تتساءل: كيف أتصرف وأفعل؟ لا أطفال ولا مال ولا معاملة حسنة بل ولا معاشرة زوجية سليمة أشعر بها , إذن لماذا تزوجت ووضعت أساور سيطرة الزوج برسغي؟

مازال حالها كما هو بل زاد عليه أن أقنعها بعدم النزول صيفاً لزيارة والدها العجوز الذي كان ُيرسل إليها بخطاباته يبثها فيها حبه وبكاءه على

فراقها وهى صغيرته والتى لم يحتل أحد مكانها فى قلبه بحكم أنها آخر العنقود. تبكى الجحود لأبيها العجوز وترجوه أن يسمح لها بزيارته وتخبره بأنها سوف تعيد ثمن التذكرة من مصر من مال أبيها ولكنه مازال على حاله من إقناعها بتأجيل سفرها هذا.

أضرمت نار الضيق بصدر أبيض شاب وقد مضى على زواجها منه أربعة أعوام . قررت التمرد على هذا الزوج المختل فكراً وقلباً فاتجهت إلى عمها محمود وزوجته سلمى تبثهما ألمها وقد فوجئا بما اعتمل فى صدرها ولهذا قرر الرجل أن يحسم الأمر وسأل عنايات عن رغبتها فنطقت بكلمة الحق التى دائما ما تكون على لسان أصحاب الضمائر الحية "الطلاق". لم تعد تسمع اى كلمات أخرى , فقد أصدرت حكمها على نفسها زاهدة فى كل شيء مادي فالحياة الكريمة بلقيمات خبز جافة أسعد حالاً عن حياة البارونات والصالونات البعيدة عن مكارم الأخلاق والحب الإنساني البريء.

بعد جهد من الأستاذ محمود مع الزوج يُسرى سواء تلطفاً ورغبة أو تحت التهديد بإبلاغ السلطات الكويتية عما يقوم به من عمل مخالف للشريعة والقانون قام الزوج بطلاق "عنايات طلاقاً بائناً" بناء على رأى الأستاذ محمود لما شاهده من خبث ودهاء لهذا الزوج كما طالبه برد كل أموالها ولم ينجح فى مسعاه سوى عودة ما يقارب نصف مستحقاتها وقد أخذته عنايات فرحة طالبة من الله أن يحرمه من نصيبها الذي استولي عليه زوراً وبهتانا.

طلقت عنايات ولم يبلغ عمرها التاسعة والعشرين عاماً بعد وانتقلت إلى منزل عائلة صديق والدها حتى تنهى علمها الدراسي الذي لم يتبق عليه

سوى أسبوعين قدمت خلالها استقالتها وتحررت من عقد عملها هناك , حصلت بمساعدة الأستاذ محمود على كل مستحقاتها.

بداية شهر يونيو شديد الحرارة من عام ١٩٩٠ وقد عادت عنايات إلى منزلها بقريتهم لتنهل من حُب وحنان وعطف الأب الحبيب التى كانت تنظر إليه وتقترب منه حتى أثناء صلاته ناظرة إليه باسمة لهذا الأب الحبيب الحلمي لها ولشقيقاتها والذى لم تشاهده أو تسمعه قد أهان أمها فى يوم من الأيام ولم يحصل على قرش من ميراثها والذى مازال طرف خالها وصفى بمدينة دمنهور ,دُهشت من سوء معاملة الناس , كانت تشعر بداخلها بأنها مُقبلة على بعض المشاكل مع إخلاص زوجة أبيها لما عُرف عنها فى البلدة من اندفاعها ورعونتها.

فى أحد الأيام خاطب والدها زوجته أمام ابنته عنايات بقوله: أرجو أن تدوم العلاقة الحسنة بينكما وإذا حدث سوء تفاهم ولم تستطيعا حله فلن أتنكر لابنتي لأنها لن تستطيع الحصول على أب آخر أما أنتِ يا إخلاص فيمكنك العثور على زوج آخر , صمتت السيدة وآثار الحنق بادية عليها لكنها سمعت ووعت نتيجة حماقتها بأن زوجها سوف يستغنى عنها ولن يستغنى عن ابنته.

دفعها هذا لأن تقوم بمد جسور الصداقة والحب مع "عنايات" وشقيقاتها لأنها تعلم بأن للشقيقات التأثير على صغيرتهن "عنايات" مما أشعر عنايات بالحرية واشتمت عبير الحياة الجميلة بعد أن نفضت عنها غبار سجن الزوج الأرعن البخيل الغير أمين على بنات العائلة.

التقت مع أسرة الأستاذ محمود التي كانت فى زيارة لمصر وجاء الرجل ليقوم بواجب الزيارة للصديق وأخبرها بأنه بعد أسبوع سوف يعود لعمله بالكويت وإذا رغبت بالعودة للعمل فهو مستعد لمد يد العون ولكنها شكرته وأخبرته بأنها تقدمت بأوراقها الى التربية والتعليم وعلمت من أحد الأقارب بمديرية التعليم بالشرقية بأنها سوف تتسلم عملها بمدرسة فاقوس الثانوية للبنات والمسافة إلى المدرسة قريبة لا تتعدى عشر دقائق بالميكروباس.

اليوم التالي فوجئ العالم بهجوم العراق على الكويت واستيلاء صدام حسين على تلك الدولة الصغيرة وما صاحب هذا من تشريد لجميع الجنسيات وهروب ونزوح جماعي من الكويت المحتلة. ظل الأستاذ محمود وأسرته بمصر وقد جاءت الأخبار تباعا حيث سُجن "يسرى" وُجرد من كل ما يملك وصودر رصيده بالبنك الكويتي الذي يضع أمواله به.

سارت الحياة بعنايات بكل يُسر من خلال العلاقات الطيبة بين أبناء الريف والذين لا يكرهون أحدا رغم فلتة اللسان فى بعض الأحوال ولكن السمة البارزة فى العلاقة هى الطيبة والحب والبساطة فى المعاملة. بعد عودة "عنايات" بستة أشهر تقدم إليها أحد زملائها بالمدرسة عن طريق زميلة لهما ولكن "عنايات" اعتذرت بأنها راغبة في أن تظل حرة بدون زواج لفترة من الوقت تستعيد خلالها حياتها ونشاطها وحيويتها.

مضت سبع سنوات على مغادرة "عمر" منزله بعد المشاجرة التى تمت مع أسرة زوجته لم يفكر خلالها فى إصلاح ما بينه وبين زوجته "هالة" فقد آلمه أن تكون هى المتسبب الرئيسي لما يقاسيه الآن وكان دائم الاتصال بأبنائه من خلال ممدوح صديقه والذى تولى إيصال النفقة الشهرية الى أبنائه وزوجته والتى وضعتهم فى وضع مادي أفضل من وضع عائلتها لما غمره الله عليه من نعمه.

فى أحد الأيام كانت زوجته هالة تطالع إحدى الجرائد فشاهدت إعلانا عن بيع محاصيل مزارع "حمدي النمر" بأرض العزبة والإعلان مزود بالعنوان وأرقام تليفونات العزبة للاستفسار. هى تعلم أن حمدي النمر هو والد زوجها "عمر" ولذا أسعدها هذا الإعلان فاتجهت إلى التليفون وقامت بالاتصال بالرقم فجاء صوت أحد مساعديه من الجانب الآخر موضحاً عن اى استفسار وهو مستعد للإجابة عليها ولكنها أخبرته بأنها زوجة المهندس "عمر" حيث أسرع الشاب الذي أجابها بدعوة "عمر" لمكالمة خاصة.

مجرد أن سمع عمر صوتها وعلم أنها هالة اضطرب وتخوف أن يكون هناك مكروها قد أصاب أبنه أو أبنته ولكنها طمأنته عليهما وأخبرته بأنها سعيدة لسماع صوته راجية من الله أن يعود الحب والوئام بينهما ثانية.

انتهت المكالمة دون شيء جديد حيث ظل الزوج المعذب متذكراً الإهانة التى لحقت به من أسرتها وهو صهرهم فكيف يستقيم به الأمر وأن

يُصبح رجلاً في منزله وقد اعتدى عليه أهلها اهانة وسبابا من كل نوع ثم إلقاء ما يخصه علي قارعة الطريق أمام الجيران.

*****

لم يمض العام الأول منذ عودة عنايات إلا وقد عادت "إخلاص" إلى حماقتها واندفاعها وإثارة المشاكل مع ابنة زوجها بعد أن أثارتها قبلها مع شقيقاتها واللائي امتنعن عن زيارة والدهن مما اضطره إلى التوجه لزيارتهن بمنازلهن , تحاملت عنايات علي نفسها ولم ترغب في أن تضيق علي والدها الخناق وفي نفس الوقت هي غير راغبة في مغادرة منزلها وترك والدها فريسة سهلة أمام تلك الزوجة القاسية والتي قاطعها أهلها لما تسببه لهم من مشاكل.

قبل نهاية العام التالي أقبل فصل الشتاء قارصاً باردا ً ممطراً وفي ليلة شديدة البرودة حدثت بين الزوجة و"عنايات" مناقشة قوية وصلت إلى السب والقذف المتبادل بينهما وكان والد عنايات في زيارة لقريب له بمدينة أسيوط , قامت إخلاص بطرد ابنة زوجها خارج المنزل وجمعت كل أغراضها في حقيبة سفر قديمة وألقته خلفها أمام باب المنزل والأمطار مازالت تهطل بغزارة ، وجدت "عنايات" نفسها فجأة بخارج المنزل مطرودةً مهانة ولا تعرف كيف التصرف.

تنبهت إلى فجيعتها ولم تدر كيف التصرف؟ لو توجهت إلى منزل إحدي شقيقاتها سوف يدفع هذا بأحد الأزواج إلى توجيه اللوم إليها وإلى شقيقتها وكأنهن المذنبات , ما هو التصرف؟ فكرت وقررت بأنها سوف تتوجه إلى

صديقتها "ثريا" والتى تقيم بإحدى القرى القريبة من مدينة فاقوس فهى تعيش مع أمها المريضة ولا يوجد أحد من الرجال فى المنزل وقد سبق لها أن عرضت عليها رغبتها بزيارتها والإقامة لديها عدة أيام.

حملت حقيبتها ومازالت الأمطار منهمرة , انتظرت على قارعة الطريق المتجه إلى مدينة فاقوس لتري اى وسيلة مواصلات رغم صعوبة العثور على أي سيارة فى مثل ذلك التوقيت وفى تلك الأحوال الجوية السيئة , تناشد صديقتها , أنا قادمة لك يا ثريا وسوف أقضى معك بضعة أيام حتى تنجلي الحقائق بعد عودة أبى.

دقائق قليلة ولكنها مؤلمة على النفس الجريحة وبرود العواطف بين بني البشر , أقبلت سيارة تسير الهوينا نظرا لصعوبة الرؤيا بالطريق فالأمطار جعلت الرؤيا صعبة , أشارت إلى السائق الذي توقف بعد أن ابتعد عنها قليلا ثم عاد إلى الخلف حتى توقف بجوارها , كانت سيارة نصف نقل , تحيرت متسائلة: كيف أركب سيارة نصف نقل؟ اننى راغبة فى سيارة أجرة لكن هذا ليس وقت الاختيار , فتحت بابها متسائلة.

- فاقوس يا أسطى؟

- فاقوس وإلا حته بعدها؟

- أيوه بعدها

- لكن من اى طريق ؟ يعنى الصالحية وإلا الحسينية؟

- الحسينية.

- مسافة كبيرة ؟

- آه خمسه كيلو.

- اتفضلى اركبي . أنتى واقفة تحت النطره وبتتكلمى.

قفزت إلى داخل السيارة وقد صاحبتها رعشة ورجفة , نظر إليها السائق حزينا لما لاحظه عليها , ازدادت الرجفة , اقتربت السيارة من مدينة فاقوس وقد توقف هطول الأمطار , توقف السائق أمام منزل أحد الفلاحين متحدثا:

- بأقول لو معاكِ غيار تدخلي الدار دية تبدلي هدومك , حتعى ويجيلك برد.

فتحت باب السيارة وحملت حقيبتها واتجهت إلى المنزل القروي وكان مصاحبا لها , بعد عدة طرقات باليد على الباب الخشبي الضخم جاءت سيدة ريفية فى العقد الرابع وشرحت لها عنايات رغبتها وقد أفسحت لها السيدة الطريق وأدخلتها إحدى الحجرات ثم طلبت من السائق الدخول والحصول على بعض الدفء من النيران المشتعلة بالداخل.

أنهت "عنايات" استبدال ملابسها وشعرت بالدفء بعد جلوسها أمام النيران وأقبلت السيدة تحمل لهما كوبين من اللبن الساخن مما ساعدهما على زيادة جرعة الدفء , بعد فترة قدما الشكر إلى السيدة وابنتها وغادرا المنزل لاستكمال سيرهما , بعد عدة كيلومترات خاطبت السائق قائلة:

- هنا يا أسطى.

توقف السائق وغادرت السيارة فهبط معها حاملا حقيبة ملابسها وسار بجوارها يتخبطان فى الأوحال , وصلا إلى منزل الصديقة ثريا وبعد عدة طرقات متتالية على الباب والذى لم يفتح وكان الظلام باديا على المنزل

بالداخل أقبل أحد القرويين ليخبرهما بأن الأستاذة ثريا وأمها سافرتا إلى طنطا وسوف تعودان باكر.

وقفت "عنايات" مترنحة وقد سقط آخر خط دفاعي أمامها , نظر إليها السائق وأشار إليها بالمغادرة , سارت خلفه لا تعي من أمرها شيئا , ركبت السيارة فوجه إليها سؤلاً:

- أنتِ بتدورى على مكان بيات آمن لحد الصبح؟ أشارت إليه بهز رأسها وأعقبتها ببكاء حزين , طيب من خاطرها وقاد السيارة ولم يحادثها بأي كلمة , بعد فترة زمنية شعرت خلالها عنايات بأنها أمداً طويلا توقف السائق قائلاً

- تفضلي هنا.

نظرت إلى المكان الذي توقف به وشاهدت بعض اللمبات الكهربائية المضاءة ورجل وسيدة يقفان ، رحبت السيدة بهما.

- حمدا لله بالسلامة يا باش مهندس , الله مين النواره الجمر اللى معاك , لازم الست هانم؟

بقليل من الكلام نظر إلى المرأة محدثاً شبه آمر:

- روحية. روحي مع الست هانم وإفتحى الاستراحة وجهزي لها كل طلباتها. وأنت يا عوض جهز لي نومه فى المكتب. ثم نظر إلى عنايات قائلاً:

- بعد ما تغيري هدومك روحية حتجهز لك العشا ولو كنتي تحبي تسهري إحنا حنقعد شويه فى المكتب أكلم معاهم ونتفرج على التلفزيون.

تركها متجها إلى المكتب سائراً برفقة الغفير عوض بينما اتجهت كلٌ من "عنايات وروحية" إلى داخل الاستراحة وقد تطوعت روحية بإعطاء

البيانات التفصيلية عن السائق , بأنه الذي يمتلك تلك العزبة ولم تنته من حديثها إلا بعد أن انتهت "عنايات" من تناول طعامها وخلودها للنوم لما جابهته مساء ذلك اليوم.

فى حجرة المكتب أستبدل "عمر" ملابسه بملابس النوم وأغتسل وتوضأ وصلى العشاء وتناول طعاما خفيفا وشرب كوبا من الشاي وفتح الراديو بجواره مستنداً بظهره على الحائط مدثراً ببعض البطاطين اتقاء برودة الشتاء وفكره مازال مشغولا بهذه السيدة الجميلة التى تقابل معها فجأة وهى تقف ليلاً تحت الأمطار الشديدة فى تلك الليلة الباردة , شعر بأن شيئا غريبا خلفها وأعتقد بأنها هاربة من أحد لما لاحظه عليها من خوف وتوتر لكنه أبعد فكره بأن تكون سارقة أو ما شابه ذلك لما يدل عليها رقتها وملابسها الغالية الثمن وتحليها ببعض الأساور الذهبية بل إنها تجيد الحديث مما يدل على أنها نالت قسطاً من التعليم.

انتهى التعليق على أخبار الواحدة والنصف بعد منتصف الليل وكانت أغنية السهرة لكوكب الشرق أم كلثوم :

يا لى كان يشجيك أنينـــى من طـــول أســـــايا
كان منايا يطول حنينـــي للبكا وأنت معـــــــايا
حمتني من نار حبـــــك وأنا حرمتك من دمـــعي
ياما شكيت وإرتاح قلبك أيام ما كنت ابكي وانعي

هتف الشاب بداخله حيث أن أنين ضيفته لم يسمعه وكيف يشجيني أنين إنسان فى كربة , ظل يستمع للأغنية حتى نهايتها.

*****

فى منزل عم غريب والد عنايات شعرت إخلاص زوجة أبيها بالسعادة والانتصار لطرد ابنة زوجها وقد جاءتها أبنتها الكبرى وهى بالمرحلة الإعدادية تسألها لماذا فعلت هذا بأبله عنايات ولكن الأم طردتها من أمامها طالبة منها الانتباه لدروسها , غادرت الفتاة حجرة أمها حزينة على حال أبله عنايات وهى تشاهدها باكية وأمها تدفعها إلي خارج المنزل وتسمعها كلمات مؤذية (غوري من داري .. شوفي لك حته تأويكى) .. تطالبها عنايات بكل ذل:

- حرام , خليني للصبح عشان أشوف انا رايحه فين وجايه منين , دة وقت خطير , مش خايفه علىّ من ذئاب البشر الليلية؟

بكت الفتاة الصغيرة ولم تع كلمات الدرس الذي كانت تقرأه , صرخت : حرام والله يا ماما .. حرام .. ترضى حد يعمل فيا كده .. ده يرضى ربنا .. والله ربنا حيعاقبك ومدرس الدين قال كده .. قال العقاب من جنس العمل .. يوم لك ويوم عليك.

بعد منتصف الليل ومازالت إخلاص فى أحلامها بأنها استقلت أخيرا بالزوج الهرم وسوف تستولي على منزله وأرضه وكل ممتلكاته. جاءها صوت أم كلثوم: يا اللي كان يشجيك أنيني. شعرت بالسعادة والطرب بأن عنايات تتألم الآن وهى تحدث نفسها قائلة: كنت أتمنى أن أستمع لصوت

أنينها ولكنى أشعر به وهى تسير فى أوحال الريف ولا تجد أحداً يؤويها. ذهبت إلى سريرها تحلم بانتصارها على ابنة زوجها ونامت بجوار شيطانها.

فى الصباح استيقظت "عنايات" وأصابتها الدهشة لحالها متسائلة أين أنا؟ عادت بها الذاكرة المحطمة إلى حادث الأمس الأليم وطردها من بيت والدها هذا البيت الذي أنشأه كلّ من والديها وولدت به مع شقيقاتها وظلت به حتى جاء الغريب وطردها وتذكرت المثل الشعبي الذي يقول "البيت بيت أبونا ويجيوا الغرب ويطردونا" دمعت عيناها الجميلتان ولم يعد هناك حام لها وتسألت لو لم يوقعها القدر فى يد هذا الشاب المهذب الذي كان حليماً ومهذباً معها ماذا كان سيحدث لها؟ تذكرت أن الخالق الحق بالسماء والذي لا تأخذه سنة ولا نوم وهو علام الغيوب قد أرسل لها فى هذا التوقيت بهذا الشاب الذي حافظ عليها .. توجهت بالدعاء له: شكرا لك يا رب .. شكرا لك.

نهضت عنايات واتجهت الى الحمام واغتسلت وتوضأت وصلت عدداً من الركعات بالإضافة لصلاة الصبح حمداً وشكراً لله. فتحت شباك حجرتها فاستقبلتها رياح باردة وأصوات الطيور التى تسبح بحمد الله الذي خلقها ويرزقها دون عمل. أغلقت زجاج الشباك واتجهت ترتدي ملابسها راغبة فى مغادرة المكان عائدة إلى قريتها للقاء شقيقاتها لعل الله يفتح لها باب النجاة مما تقاسيه.

أقبلت عليها روحية مرحة باشة فى وجهها مرحبة بها بإلقاء أحلى تحية للصبح.

- صباح اللبن الحليب , وشك منور يا ست هانم , تحبى تفطري هنا وإلا تفطرى مع سى "عمر"؟ نظرت إليها متسائلة:

- مين سى عمر؟

- جصدى الباش مهندس ما هو ده أسمه

- آه ممكن أفطر معاه

- طيب تفضلي معايا

غادرت الاستراحة التى قضت ليلتها بها وشاهدت عمراً يقف هناك يحادث بعضاً من معاونيه ومجرد أن شاهدها مُقبلة حتى صرفهم وأتجه إليها باسما

- صباح الخير. أرجو إنك تكوني إستريحتى؟

- أشكرك كتير وكتر خيرك ويا ريت حد يوصلني لعزبتنا

- حاضر. مش ناكل عيش وملح. بابتسامة عريضة.

- موافقة

- روحية : الفطار جاهز

- جاهز يا باش مهندس

توجها إلى حجرة المكتب حيث أعد طعام الإفطار من خير الأرض وجلسا يتناولانه وكل يحدث نفسه بكل شيء طيب دون أن يعلم أي شيء عن الطرف الآخر.

بعد تناول طعام الإفطار تحدثا سوياً وأقترب الحديث العام إلى الحديث الخاص وتعرف عليها وعلم بمهنتها وأخبرها بقصته منذ تركه العمل حتى الآن وعنايات تستمع لحديثه منبهرة لما ألم بهذا الشاب والذى وقفت الأقدار

ضده على طول الخط ثم أخيراً فتحت له ذراعيها وأقبلت عليه الحياة التى ضنت عليه كثيراً.

تشجعت وأخبرته بما حدث لها من زوجة أبيها ثم أخبرته بعملها وزواجها الفاشل وأنها تحب والدها بعد الله فلا مكان بقلبها لأحد إلا والدها غريب.

رافقها متجها بها إلى عزبتهم ومن المكان الذي أقلها به أمين عاد بها وإشارات إلى منزلها وعرفه وقدمت اعتذارها له بأنها كانت راغبة فى أن تقوم باستقباله ولكنك تعلم بحالي ومازال والدي لم يعد من أسيوط وسوف يعود مساء اليوم. ودعها على أمل أن يعود لزيارتهم بعد عدة أيام ليطمئن عليها وقد زودها برقم تليفونه بالمزرعة وزودته هي الأخرى برقم تليفون البيت.

*****

عاد الأب إلى منزله مساءً ولم يشاهد صغيرته والتى كانت تستقبله بالفرحة والبسمة وقبلاتها التى تشبعه وتذكره بأمها التى قضي معها ما يزيد عن خمسة وثلاثين عاما , شعر أن منزله مُظلم كئيب كريه. استقبلته كريمة ابنة إخلاص.

- أهلا عمى غريب.

- أهلا يا كريمة , ازاى حالك؟ أمال فين حبيبتك عنايات؟ مش شايفكم مع بعض زى كل يوم ومش بتذاكري معاها؟

بكت الفتاة وقد انزعج الأب متسائلاً:

- خير؟ فيه حاجه؟

- ايوه يا عم غريب , أمبارح ماما طردت أبله عنايات من البيت وشتمتها وكانت الدنيا بتمطر

- يا خراب بيتك يا غريب. ولحد دلوقتى مرجعتش؟

- ايوه وأنا رحت لأخوتها وسألتهم وكلهم جالوا ليا مرحتش عندهم.

أقبلت إخلاص فى أبهى حلة ونظرت إلى زوجها والشرر يتطاير من عينيه سألها بعنف.

- عملت إيه فى بنتي؟

- ما فيش!! حصل بنا زعل طولت لسانها كرشتها من الدار

- ده كل اللى حصل؟ كرشتيها من دار أبوها. بره. بره يا واطيه يا بنت الكلب. أنتى طالج .. طالج .. طالج

أطلقت صوتها عويلاً ولطما وتجمع أهل العزبة ولكنه كان عنيفاً وكما قال بعض أصدقائه , لقد كان الحلم هو غريب وغريب هو الحلم ولم نشاهد قسوته إلا فى ذلك اليوم وقد وقف الجميع فى صفه ولم يهدأ إلا بعد أن جمعت إخلاص ملابسها وأمسكت بأطفالها باكية حزينة والناس من حولها ما بين باصق على سوء تصرفها وما بين ملق عليها بعض السباب وكانت عنايات تقف مع شقيقاتها بينما أزواجهن اتجهوا ليساندوا عم غريب حيث قالت عنايات: "داين تدان والجزاء من جنس العمل"

عادت الابنة الرقيقة إلى عشها الجميل التى تتنفست منه أول نسائم الهواء بعد ميلادها , عادت إلى الأب الحامي المدافع عنها ولقد كان الأب عند عهده

حيث حذر زوجته من مغبة أن تأتى بتصرف شائن مع أبنته ولكنهم لا يعقلون كما وصف الله بعض عباده.

شرحت عنايات مأساتها لأبيها الذي بكى سوء تصرفه فلو لم يكن تزوج بتلك السيدة الشرسة لما تعرضت أبنته لاى مشكلة وأنب نفسه وعنايات تحاول إخراجه من تلك الحالة التى لازمته عدة أيام.

أحد الأيام طالبها بأن تتصل بهذا الشاب وأن تدعوه لمقابلته , نهضت واتجهت إلى التليفون وقامت بالاتصال به وجاءها صوت روحية من الجانب الأخر والتى هللت ورحبت بسماع صوت ست الحلوين كوز العسل الصافي كما كان يحلو لها مناداتها بها. أفادتها روحية بأن الباش مهندس غادر العزبة ومجرد وصوله سوف تخبره. وضعت عنايات سماعة التليفون ونظر إليها والدها متسائلاً: هيه كلمتيه؟

سمعا طرقا على الباب. فتحت عنايات الباب فشاهدت "عمراً" أمامها ببسمته الهادئة وهو يحيها وهنا نظرت إلى والدها باسمة سعيدة.

- أبويا .. المهندس عمر واجف على الباب نهض الرجل مسرعا لاستقبال الشاب الشهم ونظر إليهما.

- مش معجول! هو أنت ساكن ريحنا "بجوارنا"؟

ضحكا سويا لما قاله الأب حيث أعتقد انه مجرد أن حادثته ابنته حتي أتى مباشرة ولكنها أخبرته بالحقيقة انه لم يكن متواجداً فى مقره ولكن الصدفة هى التى قامت بكل شيء حيث أن عمر هو الأخر كان راغبا فى لقائها. قدم

الأب جزيل شكره للشاب كما أخبرته عنايات بما قام به والدها أول أمس وقد أشاد الشاب بحسن تصرفه.

مازالت هالة تواصل الاتصال بزوجها الهارب من قسوة أهلها وسوء تصرفها وقد بدا أن الشاب مال قلبه إليها وإلى أبنه وأبنته وخاصة أنها كانت تضرب على هذا الوتر الحساس الخاص بلقائهما الأول يوم ظهور النتيجة وقصة الحب التى حفرت فى قلوبهما البكر.

أصبح عمر دائم التفكير فيها وفي أطفاله وكل اتصال يستفسر عن أحوالهما وما أصبحوا عليه وما طول كلٌ منهم ومستواهم فى المدرسة , فقد تعدت سبع سنين منذ فارق المنزل طريدا ذليلاً.

اتفقا على العودة كما اتفقا على كل الأمور لبدأ حياتهما من جديد وأنه سوف يأتي إليها ويصطحبها إلى كورنيش المدينة المقابل لكلية الحقوق وأن يستعيدا أحداث خمسة عشر عاما مضت , وافقته الرأي , اخبرها بأنه سوف يأتى إليها قبيل الظهيرة بسيارته ويصطحبها إلى هناك ثم يعودا معا إلى شقتهما وسألها:

هل ستخجلين من سيارتي النص نقل؟سمع ضحكتها المميزة وهى تخبره: لن أخجل ومستعدة أن أصطحبك إلى موقف السائقين لتعلم بأننى أحب زوجي كما لم تحب زوجة زوجها من قبل , أرسلت إليه بالعديد من القبلات من خلال التليفون وأسعدته تلك النفحات الجميلة التى تذكره بأسعد يوم قابلها وتعرف عليها لاعناً إبليس الذي يأتى إلى البشر من خلال البشر

ويهدم معبد حبهم الجميل ويصبحوا بعدها مشردين ويتركهم لحظتها ليقابلوا الندم وسوء التصرف.

*****

هذا هو اليوم الموعود حيث ارتدى "عمر" بذلته الأنيقة وأتجه إلى أحد محلات العطور بمدينة الزقازيق وأبتاع أغلى زجاجة برفان من الماركة التى تحبها الحبيبة "هالة" ثم عرج على أحد محلات الزهور وأبتاع باقة من زهور الأوركيد التى تعشقها وتحبها ودائما ما كانت تذكر حبيبها بها , سار فى طريقه المعهود فأتجه أولا إلى مقابر المدينة لقراءة الفاتحة على روح والده الذي توفى منذ أعوام وعلى روح الفقيدة والدته التى فارقت الحياة منذ أشهر قليلة ثم تابع سيره يقود سيارته المرسيدس الفارهة والتى لا يستخدمها كثيرا مفضلا عليها وش السعد كما كان يطلق على سيارته النص نقل والتى مازال يتحرك بها حتى أصبحت هى بطاقته للتعارف مع أصدقائه وعملائه بأن الحلوة جاءت لهم مبشرة بقدوم رجل الأعمال المهيب المهندس "عمر".

سارت السيارة تتهادى به من أول الشارع التى تقع بها عمارة زوجته والتى ورثتها عن والدها المعلم عبدالعال وبعد أن قطع نصف المسافة ولم يتبق سوى خمسين مترا شاهد جمعا غفيرا من الناس يقف أمام العمارة وأندهش لهذا وكيف سيقابل حبيبته فقد اتفقا سويا بأنه سيطلق نفير السيارة مرتين متتاليتين لتعلم بحضوره فتستقبله أمام باب شقتهم حيث سيحتضنها مقدما عربون حبه وهيامه بها فهى أول حبه وأم أبنائه والتى لم ينسها رغم

ما بدر منها ومن أشقائها ثم يقدم لها علبة البارفان بيد وباليد الأخرى باقة زهور الأوركيد.

توقف بالسيارة وحضر إلى لقائه عم فتحي البقال طيب القلب الذي كان بلسم جراحه النفسي يوم عراك عائلتيا معه , صافحه بشدة واحتضنه متسائلاً:

- خير ياعم فتحي؟

لم يستطع الإجابة وكانت الإجابة العملية بظهور "نعش" متوفى خارجا من باب العمارة مما دفعه وباقي المحتشدين إلى رفع إصبع السبابة بالتشهد مرددين "إنا لله وإنا إليه راجعون" هتف بداخله , أنه يوم غير سعيد أن يأتى حاملاً باقة الزهور وفى نفس الوقت يقابل حالة وفاة من العمارة وهم جميعا أحباء له , لم تسعفه قريحته بمن يكون المتوفى وبها العديد من كبار السن ولكنه شاهد أشقاء زوجته ودموعهم ترحب بقدومه , توتر. فلقد اقتربت المأساة من أسرته اى من عائلة زوجته , تدارك الموقف , فلابد أن حماته قد لاقت منيتها أثناء زيارة أبنتها , جاءه أشقاءها كلٌ يصافحه مرددين "البقية فى حياتك , شد حيلك .. كلنا لها .. ما دايم غير وجهه" ترك يده تتحرك وقد أصبحت عمياء لا يراها لأين تتجه فتمتد وتصافح وتعود وهو لا يعلم من المصافح أو الذي يليه.

تنبه وسأل شقيقها العنيف "شباره" خير يا معلم شباره؟ أجهش الرجل بالبكاء وتبعه أشقاءه. واساهم عمر فى مصابهم.

- ربنا يرحم الكل , ياه يا حماتي العزيزة , والله كنتِ البلسم والدواء الشافي. أسعفه عم فتحي البقال.

- يا ابني الحاجة بخير , لكن .. مش قادر أنطقها ولكن سيدة أخرى هى التى نطقت. "مصابنا كبير فيك يا هالـه" دارت عيناه بين جموع البشر كأنه يطالبهم بأن يكذبوا ما سمع مثل ما كذب عم فتحي ما قاله عن أم زوجته .. سار الهوينا جهة النعش الصامت صمت القبور أمام باب العمارة وأقترب منه وأشاح الغطاء الأخضر الحريري عنه ثم فك مقدمة الكفن الأبيض بين دهشة البعض ومحاولة البعض ثنيه عما يقوم به ولكن لم يتحرك أو يتحدث أحد فقد توقفت أعضاءهم. نظر إلى وجهها الجميل الذي لم يشاهده منذ سبع سنوات. يحدثها:

هالة.. أتتركينى وتتركى أبناءك إلىٰ أين؟ أجيبي حبيبتي؟ لماذا أنت صامتة؟ لقد حضرت بناء على وعدنا السابق أول أمس وأشار إلى زجاجة العطر وقربها من أنفها .. لقد أحضرت عطرك المفضل وباقة زهورك التى تحبينها .. أرجوكِ إشتمى رائحتها .. أرجوكِ أنظري إليها.. أما زلتِ غاضبة منى؟ لقد تصافينا وتصالحت قلوبنا قبل تصالح وتلاقى أجسادنا .. يهزها برفق .. انهضي حبيبتي .. إنهضى فالأيام القادمة سوف نسعد بها , لقد حضرت لأصطحبك الى كورنيش المدينة ونقف أمام كلية الحقوق ونستعيد أيام أول لقاء لنا يوم نجاحك وتفوقك .. أزداد فى دفع جثمانها وهنا تدخل إخوتها , اثنان اصطحباه بعيداً والآخر غطى جسد الراحلة.

تحرك الموكب الجنائزي وهو مازال ممسكاً زجاجة العطر بيد وباليد الأخرى باقة الزهور مرتديا أجمل حلة طوال حياته. توقف بأحد أجناب الشارع مستنداً بظهره علي حائط دكان عم فتحي المغلق للحاق بالجنازة. انهمرت دموع الصمت الحارقة محدثاً الحبيبة.

سار خلف المشيعين ولا يعرف كيف يبدل خطوات قدميه على الأرض التى سوف تستقبل حبيبته بعد دقائق. عيناه والدموع متدفقة منها بدون صوت تودعها وتتبادل تلك الدموع مع أهات النسوة المقتفين أثر المشهد.

توقف المشهد أمام المسجد ونزع الرجال أحذيتهم وكاد أن يلحق بهم دون نزع حذاءه ولكن أحدهم عاونه ليتخلص منه , كان باكياً دون إحداث صوت فهو لا يعرف ماذا يحدث حوله. وقف مع المصلين دون صلاة ويتصرف كما يتصرفون فإذا شاهدهم ينهون صلاتهم أتبعهم , غادروا المسجد فلحق بهم تاركا حذاءه وقد التف بعض الشباب حوله يساعدونه على ارتداءه. ساروا حتى المقابر وهناك شاهد كل الإجراءات رافضاً عروض الأهل والأصدقاء بألا يشاهد ما يحدث ولكنه أصر علي الوقوف مع المشاهدين.

طلب عمر من التربي أن يضع باقة الزهور على جثمانها. تردد الرجل ولكن أحدهم أشار إليه بأن يفعل ما يطلبه , أخذ منه باقة الزهور , فك الرجل أربطة الكفن عن الفقيدة ، أشار إليه "عمر" بأن ينتظر , توقف الرجل ومازالت الدهشة تلف الجميع. اندفع إلى داخل المقبرة وأشاح الكفن عن

وجهها وأخرج منديله يمسح به وجهها ويشتمه ويقبله ثم قبلها وقبل رأسها وعاد أدراجه إلى خارج القبر وأشار إلى التربي بأن يقوم بعمله.

توقف بعيداً وانتظر حتى انتهى الرجل من جميع الإجراءات وسمع التلاوة لبعض آيات من القرآن الكريم وصافح الرجال مع أخوتها والذين اتجهوا إليه وهو يصافحهم فاتح العينين عديم الرؤا والإحساس. لم يبق من الجمع سوي أشقائها وأبنائهم الرجال. حاولوا أن يصطحبوه معهم ولكنه أعتذر طالبا منهم تركه لفترة. ترددوا ولكن أحدهم أشار إليهم بأن يتركوه لحاله فالمصاب أكبر من قدرته. تركوا أحد شباب العائلة قريبا منه ليقدم له يد العون والمساعدة.

جلس "عمـــر" أمـام المقبـرة مباشـرة يحـادث زوجتـه الراحلـة " هالـة: اسمعيني. عن قريب سوف الحق بك ونحيا معا فى البرزخ ثم بعد القيامة نعيد أيام الدنيا ونحتفل سويا بأيامنا الجميلة. لن أنساكِ وهل ينسى الإنسان نفسه. أحبك وسأظل أتذكرك وسوف أرعى زهرتيك رعاية كاملة رحمك الله وإنا لله وإنا إليه راجعون. خرجت كلمات الرثاء من فمه دون إعداد من عقله ولكن قلبه صاغها وأعدها بجروح غائرة به.

جفت دموعه بينما مازال قلبه يدمع بداخله وقد أصابته حالة من ضيق التنفس كاد أن يُصاب بالإغماء فأسرع أبن شقيقها وفك الكرافتة عن رقبته وأحضر كرتونه ملقاة قريبا على الأرض وروح بها علي وجهه ليدفع الهواء إليه , شاهد أحد خفراء المقابر فطلب منه ماءً فاحضر الرجل إليه بعضا منه

, القي عليه رخات قليلة أفاق على أثرها , شاهد الشاب بجواره , قدم شكره إليه وسار بصحبته إلى منزل العائلة.

قدم الطعام ولم يره أو يشعر به. ظل جالساً هامساً مما دفع بشقيق زوجته شباره إلى البكاء مؤنبا نفسه على ما سببه لهذا الشاب بما أفتعله معه من مشاكل مما حدا به إلى هجر المنزل تلك السنوات الطوال وقد تبين لهم أنه متيم بزوجته الراحلة. لقد سطر القدر سطره الأخير. اتجهوا إلى الصوان المعد لاستقبال المعزيين , ظل واقفا يستقبل الناس مصافحا بيد عمياء وفم أخرس , لم يتعرف علي اى إنسان حتى صديقه ممدوح فلم ينتبه إليه أو يتعرف عليه. لم يشرب قطرة ماء إلا حينما توجه للمسجد القريب يتوضأ فاتبعها ببعض قطرات من مياه الحنفية. انتهت تلك الليلة الرمضاء وفيها استوي "عمر" على نار الفراق.

عرض عليه أشقاؤها أن يبيت معهم ولكنه شكرهم بإيماءة من رأسه وقد وصل سائقه بعد أن كلف صديقه ممدوح بالاتصال به حينما تنبه له. جاء السائق بدون سيارة كما أخبره ممدوح , عرض عليه أشقاء الراحلة إذا رغب فى مشاهدة طفليه لم يجبهم وسار خلف سائقه ولم يستطع أن يفرق بين سيارته وسيارات أخري قابعة بجوارها لولا سائقه محمود الذي نبهه.

عاد إلى العزبة ولم يعد "عمر" لكن عاد هيكله أو شبحه , وصل إلى العزبة ودلف إلى استراحته ولم يبدل ملابسه وخلد إلى نومه وهو يهذى ومن حين لآخر يتجه إليه غفيره عوض ليوقظه من كوابيسه المتتالية. نهض الشاب وأتجه إلى الحمام فأغتسل وتوضأ وصلى استغفاراً لما حاق به فهذا

اعتراض على قضاء الخالق , أمسك بكتاب الله الكريم يتلو آية وراء آية حتى سمع آذان الفجر من المسجد الملحق بالعزبة. نهض وأدي الصلاة يدعو الله بالرحمة لزوجته الراحلة وأن يلهمه الصبر والقدرة على عنايته بأبنائه , شعر بلسعة قوية حينما تذكر أبناءه . فكر أن ينهض ويتجه إلى منزل جدتهم ليصطحبهم ولكنه تراجع لأن الوقت مازال مبكراً وعليه الهدوء والسكينة.

شعر براحة أن أنبلج ضوء الصباح فخرج إلى الشرفة ينظر إلى قدرة الله فى الأرض وأنعشه تغريد الطيور ناظراً إلى قطرات الندى على أفرع الزراعات , جاءته روحية عارضة عليه الطعام لم يجبها ولكنه طلب منها كوبا من الشاي , أحضرته فتناوله وهو سارح بنظره يتبعها بفكره. إلى أين؟ لا يعلم. شعر أن رأسه كبيرة الحجم ولكنها خاوية من الفكر والعقل , عاد برأسه إلى الوراء وسالت دموعه غزيرة ساخنة مؤلمة.

تذكر هذا الصباح والذى كان سيصبح الصباحية له مع زوجته ولكن يد المنون كانت أقرب إليها منه , فكر. لماذا نعيش؟ لماذا نعمل؟ لماذا نتصارع على الحياة وسوف نصل جميعا إلى النهاية المحتمة وهى لقاء الله. توقفت دموعه ونهض وأغتسل. قرر أن يقطع الألم بالعمل , شاهد جموع المزارعين متجهين لأعمالهم وبعضهم يغنى ببعض أغنيات وسمع راديو أحدهم وأغنية الصباح الجميلة:

يا صباح الخير باللي معانا يا اللي معانا
الكروان غنى وصحـــانا وصحـــانا

والشمس أهي طالعه بضـــــــــــــاها
والطـــير أهي ســـارحه في سمـــــاها
يا للا معـــــاها يا للا معـــــــاها
يا صباح الخير يا اللي معانا يا اللي معانا

استفاق عمر وتبعهم لأعمالهم يحدثهم ويحدثونه ولكنه شعر بأنه فى احتياج لأحد يسرى عنه ومن يكون؟ لم يفكر ولكن جاء على باله "عنايات" هذه الإنسانة الرقيقة والتى جمعتهما عدة لقاءات فى دارها بالعزبة. قبيل الساعة العاشرة أتصل بها وكانت سعادتها كبيرة:

- مين .. عمر؟

- ايوه .. أزيك .. عامله أيه؟

- الحمد لله .. وأنت عامل إيه؟

- باعتبر نفسي من عداد الأموات .. بدهشة.

- ليه كده صوتك فيه حاجه؟

- أيوه فيه حاجه .. عنايات عايز أشوفك

- خلاص تعالى وانا ح أجول لبابا يستنى

- بلاش بابا .. عايز آجى وأجعد معاكي لوحدنا

- مش ينفع يا عمر

- أنا عارف لكن ممكن نجعد جدام باب البيت لكن أنا مش عايز حد يجرب منى غيرك.

- ليه كده؟

- لما آجى حتعرفى إن ليا حج

- طيب تعالى ومش يهمك

- حاضر .. مسافة السكة

قاد سائقه محمود السيارة حتي توقف بها أمام منزل عنايات التى شاهدت سيارة مرسيدس كبيرة الحجم تقف أمام دارها فى المساحة الفضاء. اندهشت ولكن دهشتها زالت عندما هبط منها "عمر" .. شعرت بسعادة غامرة ولكن حينما أقترب منها وجلت وتخوفت فهى تشاهد شخصاً غير الذي تعرفه .. أنه أشبه بمومياء تتحرك وقد تضاعف عمره الزمني صورة وحركة .. استقبلته.

- خير يا عمر؟

شاهدت الدموع تنبثق من عينيه فشعرت بما كان راغباً فيه بألا يراه أحد غيرها , سارت أمامه مفسحة الطريق حتى دخل دارها ومجرد أن وقف فى الصالة أندفع باكيا مثل الطفل الذي يتألم بألم شديد أمام أمه وهي تسأله وهو طفل لا يعرف كيف يجيب أو يوضح .. لحقت دموعها دموعه وجلسا سويا على الكنبة بالصالة يبكيان دون حديث فقد شعرت بأن مصاباً جللاً قد أصابه. يا ترى من يكون؟ هل زوجته؟ أو أبنه؟ أو أبنته؟ لا أعلم تحادثه بدموعها .. عمر .. إيه اللي حصل لهالة؟ .. بكى ضاربا بيده على ظهر ألكنبة صائحا.

- ماتت .. ماتت.

خلاص يا عنايات. وظلا هكذا حتى عاد والدها وشاهد ما شاهد وأعتقد بأن أبنته أغضبت هذا الشاب الرقيق المهذب ولكنه يعلم أن أبنته لا تنسى معروفه وكرم خلقه ليلة أن طردتها زوجته إخلاص ولكنه تنبه .. إخلاص .. لابد أن تلك الملعونة جاءت إلي منزله وأهانت الفتى وأبنته. فكر كيف ينتقم منها ولكن أبنته أخبرته .. أبى لقد فارقت زوجة عمر الحياة .. تسمر الرجل الذي عانى مثل هذا الموقف منذ عدة سنوات .. أقترب منه وضمه إلى صدره , شعر "عمر" بأنه صدر أبيه فارتمى عليه باكيا .. بعدُجهد أستطاع الاثنان التهدئة من روعه. تناول طعامه لأول مرة منذ أكثر من أربعة وعشرين ساعة. غادرهما أحسن حالا مرددا "إنا لله وإنا إليه راجعون"

الحياة حـلوة

بعد مغادرة "عمر" لمنزل عنايات قرر التوجه إلى مسكن والدة زوجته الراحلة ليأخذ بخاطرها , فلقد فقدت أبنتها الوحيدة كما أنه راغبٌ فى رؤية أبنه وأبنته , كان ينظر من شباك السيارة ولا يشاهد غير أعلام سوداء ونساء تلطم الخدود والبعض منهن تشق الجيوب والضباب الأسود يحجب ضوء الشمس حتى أنه حذر سائقه بأن ينتبه للطريق من وجود ضباب أسود وقد نفى السائق هذا.

*****

بعد مغادرة "عمر" منزل عنايات شعرت الفتاة بحب قوى تجاهه ولكنه حب العطف والرثاء وليس حباً بين رجل وامرأة , كادت أن تأخذه على صدرها لولا خجلها فقد شعرت بأنه أبنها رغم أنه أكبر منها عمراً. عادت ذاكرتها للوراء عدة أعوام حينما اختبرت تلك المأساة مع أمها , الآن يتوجه عمر ليكمل باقي مأساة حياته , لقد استراحت "هالة" وتركت له وديعتيها , لقد قرر القدر أن يقتسما التربية بينهما وأن تكون تلك القسمة منفردة , هالة ترعاهم حتى يصل عمر البنت إلى أربعة عشر عاما والصبي إلى اثنتي عشرة عاما , منهم سبعة أعوام بمفردها وهو عليه بسبع سنوات أخرى حتى يعتمدا على أنفسهما.

*****

وصل عمر إلى منزل والدة زوجته وطرق الباب فقامت الخادمة بفتحه ولم تتعرف عليه رغم أنها تعمل لديهم منذ خمسة عشر عاما. تنبه أشقاء هالة بأن أحداً قادمٌ للقيام بواجب العزاء , شاهد طفلاه ينظران إليه من خلال فتحة الباب الضيقة , أشار إليهما فأسرعا إليه. خاطبته أبنته "نهى" ذات الأربعة عشر عاما , بابا .. انحنى لاستقبالها ورفعها بيديه ناظراً إليها متفرسا وجهها مردداً " لا حول ولا قوة إلا بالله" الخالق الناطق هالله , قبلها وهى بدورها ربتت على خده , أنزلها ببطيء أرضا فشاهد أبنه "ناجى" الأصغر بعامين من شقيقته ملاذ ذراعيه لأبيه فحمله مقبلاً متفرسا وجهه مؤكداً بأنه حصل على الكثير من أمه ,أعاده للأرض بهدوء. شاهد بعضاً من أفراد أسرة الراحلة يقفون قريباً منه , أقترب من أمها الملتاعة يحييها مقبلاً يدها وهى باكية , اندفع الاثنان في بكاء أليم لدرجة أن الأم لم تستطع التحمل فأعادوها إلى حجرتها.

نظر إليه أشقاؤها متسائلين:

- ناوي تعمل إيه يا باش مهندس؟

- اللى قولوا عليه ح أعمله , كل اللى أملكه وباقي عمرى موفره لنهى وأخوها ناجى.

تحدث أكبرهم سنا المعلم حميدة أو "قاروص".

- انا بأقول الأولاد يفضلوا مع ستهم شوية لحد ما يخدوا عليك لأنهم أتعودوا عليها. أتت الخادمة وعرضت علي المعلم "حميدة" رغبة أمه بأن يوافق "عمر" على بقاء أطفال حبيبتها بجوارها حتى تشاهدها وتشم رائحتها يوميا

انفجرت الدموع ثانية من عين "عمر" وأعطى موافقته وشكروه جميعا ثم خاطب أبناءه والدموع بأعينهم الصغيرة متسائلاً:

أتوافقان علي أن تظلا بالعيش مع جدتكما؟

نعم أبى فلتتركنا مع جدتنا فنحن نحبها ونرجو أن تأتى دائماً لزيارتنا ولا تتغيب مثل الماضي وقد كانت أمنا تخبرنا بأنك مشغول وأنك تُحبنا وسوف تأتى فى أقرب فرصة حتى إذا حضرت كانت الفرصة قد ضاعت.

جلس على ركبتيه واحتضنهما سويا مقبلاً الخدين واليدين وقد قبله طفلاه وملسا على شعره كما ودعاه حتى باب الشقة وتبعه إخوتها وأثناء هبوطهم على السلم تساءل عن المرض الذي أودى بحياة الراحلة. نفى الأشقاء هذا مؤكدين بأنها كانت تتمتع بصحة وعلى ما يرام ولكن الذي حدث أنها توجهت إلى "الكوافير" استعداداً لاستقبالك وبعد أن أنهت تصفيف شعرها وأثناء أن همت بركوب السيارة أتى شاب من المتهورين فى القيادة مسرعاً وأصطدم بالسيارة من الخلف مما دفع بها إلى الارتطام بحائط المحل كما أصيب سائقنا بجروح خطيرة. هذا كل ما حدث.

نظر إليهم وهو غير قادر على التعليق ووقف أمام باب العمارة فأقبل بعض السكان الذي تصادف مشاهدتهم وقدموا إليه مواساتهم. شكرهم وأسرع تجاه سيارته طالباً من السائق التوجه إلى العزبة.

جلس صامتاً دون إحداث أي صوت ولكن دموعه كانت أسبق من السيارة فقد تأكد له إنها كانت تنتظره ولقد قابلت ربها من أجل هذا اللقاء. رحماكِ هالة وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أثناء العودة شاهد السائق على أحد أجناب الطريق حشداً من الناس فعرض على "عمر" أن يتوقف للسؤال عن السبب فى ذلك. أشار إليه بالموافقة. ابتعد السائق عن نهر الطريق وأتجه إلى الجمهرة وعاد ليخبر عمر بالسبب الذي أدى إلى تجمهر هؤلاء. إن أحد أصاحب الأراضي طرد خفيره الذي يعمل لديه ويعول أطفاله الأربعة والرجل يقف باكياً سوء حظه والبعض يقوم بجمع بعض المبالغ الهزيلة لمساعدته.

غادر عمر سيارته مسرعاً وأتجه إلى مكان تجمهر العامة ووقف يشاهد صاحب الحاجة , وضع يده برفق على كتفه وسار به بعيداً عن الناس سائلاً إياه:

- قول لي علي حاجتك؟ نظر الرجل إليه بدهشة قائلاً:

- ليه هو أنت أحسن منى فى إيه؟ هو أنت ربنا؟ لو عايز حاجه ح أطلبها من ربنا مش منك ولا من غيرك. كتر خيرك وربنا يجازيك. تركه الرجل عائداً للمكان الذي كان يقف به مع الناس. أسرع إليه عمر قائلاً:

- مش تغضب منى. إيه اللي طلبته من ربنا؟

- طلبت منه حاجه. عايز تعرفها؟

- ايوه. هيا إيه؟ لو مش يزعلك

- طلبت منه انه يبعت لي واحد أبن حلال يلمني أنا وعيالي ويوفر ليا شغلانه

- بس كده!

- بس كده!

- طيب يا سيدي ربنا استجاب لدعاك وبعتني لك أنفذ كل اللى طلبته منه.

إبتسم الرجل متسائلاً:

- صحيح؟

- ايوه صحيح

- طيب نورني

- عندي حته أرض زراعية وحأخدك أنت وعيالك ومراتك وتعيشوا معانا وناكل ونعيش سوا و ح أوفر لك سكن. إيه رأيك؟

- كتر خيرك. بس مراتي ماتت من أسبوع وسايبة لي الأربع عيال اللى معايا وعلشان كده تلاجيني مضايج شوية.

عاد إليه البكاء ثانية والخفير يهدىء من روعه وجاء السائق هو الأخر وتجمع العلمة وأتوا من المكان الذي كان الرجل يقف به إلى مكان وقوف "عمر" وأحدهم تساءل:

- يا جماعه فيه نفر كمان محتاج مساعده. يا الله باين عليها شوطه جت البلد بينما آخر يخبر من حوله. أيوه. أيوه أنا عرفت ليه الراجل الرفيع ده خد عبده أبو خربوش ويظهر أنه فطمه إزاي يحنن جلبنا عليه هو كمان ويعمله الشويه دوول ويحمر عينه من البكاء وإحنا حنكع. دوول عالم لبط.

طلب "عمر" من الرجل أن يكون مستعداً للحضور إلى مزرعته وقد قدم له الرجل شكره وأراد أن يقبل يده ولكنه خطفها بسرعة ثم وجه كلامه إلى محمود السائق بأن يعوده بعد ساعة بالعربة النص نقل لنقله مع باقى أفراد أسرته.

غادر "عمر" المكان بين تحية وتصفيق الناس بأن الله بعت نفر أبن حلال ساعد الواد خربوش وعياله من الضنك اللى كانوا عايشينه حدا عبده أبو مفتاح الظالم الجاسى.

وصل "عمر" إلى العزبة وأستبدل السائق السيارة المرسيدس بالسيارة النص نقل وأتجه إلى القرية لنقل خربوش وأسرته كما طلب "عمر من خفيره عوض تجهيز الحجرة المخصصة للأنفار الشغيلة علشان فيه عيله جاية تعيش فيها". أسعد هذا كلّ من عوض وزوجته روحية بينما جلس "عمر" يستعيد ذكريات الدقائق الماضية لحظة أن تقابل مع خربوش وأسرته وُدهش الرجل لما يتمتع به بعض الناس من قوة الإيمان , فلقد ماتت زوجته تاركة له أربعا من أبنائها أصغرهم يحبو أرضا وأكبرهم فتاة تقارب عمر أبنته "نُهى"

شعر بضآلته لما قام به من البكاء وزرف الدموع وقرر أن يتوقف عن هذا السخف وكل نفس ذائقة الموت. توجه إلى الاستراحة وأبدل ملابسه وتوضأ وقام بتأدية صلاة الظهر وجلس يستريح مما حاق به خلال الأيام الماضية.

أصبح خربوش وأبنائه الأربعة من سكان عزبة حمدي النمر وتحسنت حالتهم وكان "عمر" من حين لآخر يتابع حالهم كما أعتاد زيارة قبر زوجته والترحم عليها كل يوم خميس أو فى المناسبات ثم يتجه لزيارة أبناءه حيث يصطحبهم معه للتنزه داخل المدينة وبعدُ مضى عدة أشهر على ذلك أصطحبهم إلى العزبة حيث اندمجوا مع العاملين بها وشاهدوا المزروعات والأبقار. لقد كانت حياة جديدة عليهما كما تعرفوا على عائلة خربوش وتأثر الطفلان بأبنائه وخاصة الطفل الصغير الذي فقد أمه وهو مازال فى مرحلة الرضاع لكن الله كان يساعده فيقوم بتناول أي طعام واى شيء يؤكل وليس له سوى السنتان الأماميتان.

توطدت العلاقة بين عمر و "عنايات" ورغب فى التقدم إليها ولكنه تراجع خشية أن تسمعه كلام يضايقه بأنه قد خلط بين الحب والعطف. فى أحد الأيام أتصل به والدها عم غريب وأخبره بأنه فى الأسبوع القادم سوف تقرأ فاتحة أبنته "عنايات" على أحد زملائها. لم يسمع باقي الحديث وجلس صريعاً من هول المفاجأة متسائلاً:

ـ ليه يا ربى؟ أحب هاله تاخدها جنبك , أحب عنايات تبعت لها عريس. بعدين ؟ خلاص انا معدش ليا قلب.

أستقل سيارته وأتجه إلى بيتها وتقابل معها وشاهد دموع الحزن على وجهها. تشجع قائلاً:

ـ عنايات. أنا بأحبك وعايزك. رأيك إيه؟ نظرت إليه والبسمة تطل من عينيها تحدثه قائلة:

ـ نجاة الصغيرة كانت بتغني لحبيبها اللي ساكن قصادها وبتحبه لكن أنت ساكن فى قلبي وبأحبك.

غمرته الفرحة واستبدلت دموع الحزن بدموع الفرح وأقبل عم غريب عليهما وشاهدهما وهما يقفان وسط الدار تتشابك أعينهما مع تشابك أياديهما.

جاء الرجل وتحدث بصوته الواهن

ـ هيه : أقول مبروك يا ولاد

اتجهت إليه عنايات تقبله ودموعها تعطره.

ـ ايوه يا بابا .. أنا موافقة على "عمر" .. ضحك الرجل من حديثها مشيرا إليه:

ـ مش تستني يا بنتي لما أسمعها منه الأول؟

ـ أنا سمعتها من قلبه قبل لسانه.

أقبل "عمر" وقبل يد عنايات ناظرا إلى عم غريب.

ـ عمي غريب أنا طالب القرب منك فى "عنايات". إبتسم الرجل وقبل الشاب قائلا:

ـ كل اللى يحب بنتي أحبه وكل اللى يحافظ عليها أحطه فى عيني. ربنا يوفقكم .. أتجه إلى التليفون وأجرى محادثة صغيرة وكان باديا أنه يحادث شقيق الشاب الذي كان راغبا فى الاقتران بها , أعتذر له بكل هدوء وذوق وكان الشقيق مشابها له فى أسلوبه. انتهى هذا الكابوس كما أسماه "عمر"

أقيم حفل بسيط وبعدها انتقلت العروس إلى استراحة عمر بالعزبة. عزبة النمر وقرر أن يشيد لها منزلا رائعاً يليق بها وهى الأخرى أسبغت عليه من حبها وحنانها ورقتها. شعر الاثنان أنهما عطشى كلٌ إلى الآخر.

أمضيا وقتا جميلا فى فرندة المنزل يبثها ُحبه وهيامه لما شعر به من سعادة عوضاً عما فقده منذ أشهر بفقد الحبيبة الأولي وأم أبناءه ولهذا بثها الكثير من الكلمات الرقيقة التي دغدغت حواسها فأسعدتها وأطاحت بتماسكها فانفرجت أساريرها بالعديد من الابتسامات التي عطرت مكان جلوسهما.

****

حضر للتهنئة أصدقاءه أو قل جيرانه الأربعة فأصطحبهم إلى مساحة الأرض التى يتملكونها والتى سلمت إليه منذ عدة أشهر. شاهدوا ما قام به. لقد شق فى وسط المساحة كلها مصرفا بالطول بعمق ثلاثة أمتار وأصبح هذا المصرف مثل ترعة صغيرة ممتلئة بالماء. شرح لهم بالتفصيل ما قام به حيث قال أنه بتلك الطريقة أصبحت أراضيهم خالية من المياه الجوفية بعمق أكثر من متران , كما تشاهدون الآن شبكة الرى بالرش التى فردتها فى مساحة الأرض , سيقوم موتور بتحريك طلمبة ماصة كابسه بسحب المياه من الترعة ودفعها بالشبكة لري محاصيل العلف , كل المزروعات أصبحت خاصة بعلف الحيوان من برسيم وذرة سكرية وفول بلدي , بعد ُمضى عام ستختفي المياه الجوفية وتعود الأرض لسابق عهدها لأن الرى بالرش لن

يسبب مياه جوفية بعد الآن وبهذا نكون قد تخلصنا من المياه الجوفية الضارة بالنباتات ونقلل بالتالي كميات المياه المستخدمة ونوفر فى الطاقة والعمالة.

أسعدهم ما قام به زميلهم ثم تجولوا بعد هذا فشاهدوا أربعة عنابر للمواشي بكل قطعة وقد شيدها بالطوب الأسمنتي العريض وبكل قطعة عددا من أبقار التسمين. حيث قال لهم: أربع سنوات ونصف موعدنا ويمكنكم الحضور فى اى يوم ويمكنكم استخدام مكان إقامتكم السابق. طفرت دموع الفرح والإخلاص من أعينهم. افترقوا على اللقاء فى أيام لاحقة.

لم يمضى على زواج "عمر وعنايات" عدة أشهر إلا وجاءت البشارة بحمل أسعدهما وأدخل الفرحة الى قلوبهما خاصة عنايات التى كانت فى أشد الشوق إلى هذا كما زاد من سعادتها بأن عرض عمر عليها بأن يأتى والدها ليقيم معهما حتى يقدما له الرعاية المناسبة.

بعد فترة من حضور عم غريب شعر بتحسن فى حالته الصحية والنفسية لمشاهدته أبنته الصغيرة يوميا. كما أن أبناء "عمر" يسيرون سيراً حسنا فى دراستهم وكان لرعاية الجدة الأثر الهام فى عبور أزمة فقد الأم كما أن أشقائها أصبحوا عوناً لأمهم فى رعاية الصغار أما عن علاقة الطفلين بوالدهما فكانت هى المكافأة الأسبوعية التى ينتظراها.

تعود عمر على اصطحاب طفليه إلى العزبة وأصبحت تلك الجولة تسعدهما وتدفعهما للبهجة خاصة أن بالعزبة العديد من العاملين مثل "روحية وزوجها عوض وأبناءه " كما أنضم إليها منذ أشهر قليلة "خربوش وأبناءه الأربعة" وقد شعرا بسعادة كبيرة بالمساعدة على العناية بالطفل

الصغير والذى فقد أمه ولم يبلغ العامين من عمره وكانت روحية أمه البديلة بكل جدارة فقامت على رعايته والاهتمام به وتوفير الطعام له وقد ألتصق الطفل بها وأصبح ينام بجوارها ولا يدعها تتركه كأنها أمه الحقيقية فهو صغير لا يعرف سواها.

أنجبت "عنايات" طفلة جميلة وعرضت على زوجها إطلاق أسم "هالة" عليها حتى يظل أسمها يتردد بينهم , شكرها ووافق على رغبتها التى أسعدته. أصبح طفلاه أشد التصاقا به ولحقت به عنايات فالصغير أشاع البهجة والفرحة بينهم وهم يحملونه ويشاهدونه وعنايات ترضعه ويسمعون بكاءه ويلاعبانه ويبتسم لهما وفمه خال من الأسنان. ازدادت الرابطة قوة وقد أصبحت "نهى" فى نهاية المرحلة الثانوية بينما شقيقها "ناجى" فى بدايتها.

شعرت الجدة بأن حفيديها من الراحلة "هالة" على خير ما يرام وقد كانت تقاوم المرض والألم من أجلهما ولهذا أطمأنت عليهما وهنا جاء أجلها ففارقت الحياة وهما بجوارها وقبلتهما قبل لقاء ربها.

أنتقل أبناء "عمر" إلى الإقامة بالعزبة وأصبح سائقه محمود يقوم بحملهما إلى المدرسة بمدينة الزقازيق ذهاباً وعودة وشعر "عمر" بأن الدنيا أقبلت عليه بعد أن ضنت عليه كثيراً وهو صابر يصارع الحياة.

*****

أثناء انشغاله بالعمل فى أرض زملائه الأربعة شاهد بعض العمال يشونون أدوات ومعدات فى أرضه التى انتهى من رفع الرمال منها. أتجه إليهم فأشار إليه أحدهم بأن هناك مشروعاً لمد شبكة الكهرباء بالمنطقة وهذه

معدات أبراج الضغط العالي التى تحمل الكهرباء. أسعده هذا فسوف تصل الكهرباء إلى المنطقة كتيار مستديم ولن يعتمد على ماكينة توليد الكهرباء التي لديه إلا فى حالات الطوارئ. بعدُ مضي عدة أيام علي هذا الحدث أقبل علي عمر مسئول من شركة الكهرباء عارضاً رغبة الشركة فى شراء ألفى متر من الأرض التي كانت قبل ذلك جبل من الرمال لإقامة محطة لتوزيع الجهد وبناء بعض عمارات للعاملين. أبدى استعداده لهذا.

بعدها بعدة أيام جاءه مسئول آخر يكرر نية الشركة فى شراء ألفى متر والثمن ألفى جنيه وكان يحمل عرضا مكتوبا من الشركة. المبلغ لم يكن كبيراً لكن بالنسبة لأرض صحراوية فيعتبر مرتفع الثمن خاصة أن هذا المسئول أبلغه بأن الشركة ستقوم بإنشاء طريق مرصوف بطول خمسمائة متر حتى نهاية الأرض لخدمة المحول والعاملين وهذا سوف يصب فى صالح عمر لأن الأرض سوف يخترقها طريق مرصوف من البداية على الطريق الرئيسي حتى نهايتها ملاصقا لأرض زملائه. وافق على عرضهم.

أرسلت إليه الشركة بخطاب للحضور إلى مقرها بمدينة الإسماعيلية للتوقيع على عقد البيع واستلام الثمن بشيك. توجه إليهم وهو مازال يقود عربته النص نقل. هناك شرح له مدير الشئون الإدارية بأن مدير عام الشركة راجل حبكي وقرر بأنه لابد من تواجد صاحب الأرض للتوقيع أمامه.

رافقه الرجل إلى مكتب مدير عام الشركة الذي نهض مصافحاً وبعد أن جلس "عمر"وحياه المدير طلب من الساعي أن يُحضر ما يطلبه "عمر"

كشراب. طلب عمر شاي. بعد قليل حضر الساعي حاملاً صينية وعليها كوباً من الشاي وكوباً آخر من الماء. تسلمها منه المدير وصرفه وأتجه إلى مكان جلوس عمر يقدم إليه الصينية بنفسه مما دفعه للحرج ونهض لاستلامها منه ولكنه رفض مصمماً على أن يقوم هو على خدمته.

جلس الاثنان أمام بعضهما البعض وبعد أن انتهى عمر من تناول الشاي فاتحه المدير بقوله: حينما قرأت العقد رغبت في أن أشاهدك شخصيا. إبتسم له عمر شاكراً ولكنه أوضح له. أنا مدحت خليل خريج هندسة القاهرة عام ١٩٧٦. ظهرت الفرحة والبهجة علي وجه عمر ولكن المدير أكمل وأنت عمر حمدي النمر. دفعتي. فاكرني يا عمر؟ أعتذر عمر لعدم تذكره ولكنه أوضح معلقاً:

- فاكر نادي الزمالك الرياضي لما كنت شاب صغير بتشتغل فيه وكانت صينية المشروبات اللى جاي بها لنا أنا وبعض زمايلك ح تقع منك وأنا أخدتها منك!

نهض عمر بعد أن تذكره وتصافحا ثانية بل أحتضن كل منهما الآخر , لهذا قال المدير: عندما قرأت العقد أيقنت أنك عمر النمر ولن يكون تشابه أسماء ولهذا أردت أن أرد جميلك لنا والذى قمت به منذ عشرين عاما. جلس الاثنان جلسة رقيقة بين مشاعر الماضي الجميل وافترقا على موعد بلقاء قريب. غادر عمر مكتب مدير عام شركة الكهرباء وزميل الدراسة الذي لم تجمعه به أي فرصة لقاء قبل هذا بعد تخرجهما وقد أثر فيه هذا الموقف من الزميل القديم ومن حُسن اللقاء والاستقبال والمودة.

انتهت شركة الكهرباء من الإنشاءات وانتشرت الكهرباء بالمنطقة وقام "عمر" بتقسيم الخمسة عشر فدانا كقطع تباع كأرض مباني وكل قطعة مساحتها قيراط. تهافت الناس عليها فالكهرباء بها وتقع على طريق مرصوف.

كانت حصيلة البيع كبيرة ولهذا أبتاع عمر بعض القطع المجاورة لعزبته وتوسع فى أعماله كما انتهت الأعوام الخمسة وجاء أصدقاءه وتسلموا أراضيهم وقد تغير حالها وأصبحت أفضل بكثير عما تركوها كما تسلم كل واحد منهم قطيعاً مكوناً من عشرة رؤوس من الأبقار الولادة بالإضافة الى شبكة الرى بالرش.

*****

تستعد الصغيرة هالة للالتحاق بالمدرسة فقد قارب عمرها ست سنوات كما انتهت شقيقتها الكبرى "نهى" من امتحانات السنة النهائية بكلية الحقوق جامعة الزقازيق بينما "ناجى" فى منتصف المرحلة الجامعية.

توجه "عمر" إلى كلية الحقوق للتعرف على نتيجة امتحانات ابنته "نهى" وبعد أن تجشم عناء الزحام بين الشباب سار الهوينا ثم توقف على كورنيش بحر مويس المواجه للكلية. نظر حوله فشاهد بعض الشباب من الجنسين وشاهد أحد باعة المرطبات وأتى إليه الشاب عارضا بضاعته.

طالب البائع بفتح زجاجة مياه غازية . تناول جزء منها وعادت به الذاكرة إلى خمسة وعشرين عاما خلت. عام ٨٢ بعد نجاح هالة. تذكر همسها وعطرها. خفق قلبه وشعر بأن قلبه سوف يتوقف من شدة السعادة

والذكرى الجميلة. طفرت عيناه بلمعة راغبة فى غسل أحزانه وجاءه بائع المرطبات.

- إيه يا بيه. الصودا باين عليها جامدة قوى. أشرب المتلجه أوى ، تركه لاستكمال سعيه ورزقه. حصل على شهيق كبير وأستقل سيارته النص نقل عائدا الى مزرعته وتنامى الى سمعه صوت عبدالوهاب :

أنا والعذاب وهواك يا اللى عايشين لبعضينا

آخرتها إيه ويـــاك يا الى أنت ناســـــــينا

أخرج منديله ووقف بجانب الطريق وجفف دموعه وتنهد قائلاً:

- إيه دنيا!!

وصل إلى العزبة وشاهد أبناءه يلهون حول زوجته عنايات وبرفقتهم شقيقتهم الصغرى هالة. ظل جالساً بسيارته النص نقل الذي مضى على شرائها عشرون عاماً ، نظر إليهم بسعادة وعاد بذكرياته إلى الماضي وتذكر حال أسرته وباقي شقيقاته وحمد الله على نعمته والله يرزق من يشاء.

تمت بحمد الله

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

٢٠٠٨/١٥٣٨١